عِلْمُ النّبات عند العرب
من مرحلة التدوين اللغوي
الى مرحلة الملاحظة العلميّة المحْض

بقلم : ابراهيم بن مراد

نعتقد أنْ ليس من باب المبالغة القولُ بأَنَّ علمَ النبات لم يَلْقَ من الحُظْوَة والاهتمام عند الأمم السالفة ما لَقِيَهُ عند العرب في القرون الوُسطى ، وأنّ المباحثَ فيه لم تشْهَدْ عند أمّة من الأمم السابقة ما شهدته من تطوّر على أيدي علماء النبات العرب . وليس ذلك في الحقيقة بدْعًا ، فهم ـ بعد مرحلة بداوتهم في الجزيرة العربيّة ـ قد انتشروا في الأرض انتشارَهم الواسع وتكوّنت أجيال عربيّة تلَتْها أجيال تمكّنوا من الاطلاع على مواليد الطبيعة في الأمْصَار المختلفة والبيئات المتنوّعة . وحصلت لهم من ذلك خِبْرة كبيرة بالنباتات ومعرفةٌ جيّدة بها . وقد تحقّقت لهم من ذلك كلّه تجربة فذّة في علم النبات جعلت منهم السبّاقين إلى الاهتمام بعلم النبات المحْض . ذلك أنّ غيرهم من الأمم قد اهتمّوا بعلم النبات ضمن اهتمامهم بعلوم ومباحثَ أخرى . ونذكر من تلك الأمم خاصّة اليونانيّين والرومان ، وأهم علماء النبات عند اليونان اثنان : هما ثيوفراسطس (Théophrastos) دِيُوسْقُرِيدِيس (Dioscorides) . وقد اهتم الأوّل بالنبات ضمن اهتمامه بالفلسفة ، واهتمّ به الثاني ضمن

اهتمامه بالطبّ والصيدلة . وأهمّ علماء النبات عند الرومان اثنان أيضا : هما بَلِينُوس (Plineius) وأبلْيُوس المادُوريّ (Apuleius) ، وقد اهتمّ به الأول ضمن اهتمامه بعلوم الطبيعة عامة ، واهتمّ به الثاني ضمن اهتمامه بالطبّ والصيدلة . والحقيقة أنّ العرب أيضا لم يُعْنَوْا ـ طيلة مدّة لا يستهان بها من تجربتهم العلميّة ـ بالنبات لذاته ، بل اهتمّوا به ضمن مباحِثهم في اللغة في البداية ثم ضمن مباحثهم في الطبّ والصيدلة . إلاّ أنّهم ـ في القرنيْن السادس والسابع للهجرة خاصّة ـ قد جعلوا منه علما مخصوصا لذاته وعُنُوا به عناية خاصّة فقاموا بالرحلة من أجله بحْثا عن أعيانه في مظانّها داخل البلاد العربيّة الاسلامية وخارجَها ، وتدْقيق البحْث في أنواعه وأجناسه على اختلافها ، حتى تهيّأ لهم من معرفتِه ما لم يتهيأ لغيرهم من الأمم السابقة . وذلك ما جعل من تجربتهم في علم النبات تجربةً فذّة تتنزّل منزلة متميّزة في التراث العلميّ الانسانيّ .

وسنحاول في هذا البحث أن نستَجْلِيَ بعض أوْجُهِ تلك التجربة ، بالحديث عن أربع مراحلَ مِن اهتمامهم بعلم النبات : أُولاهَا مرحلةُ التدْوين اللغويّ ، وثانيتُها مرحلة النقل والترجمة التي مكّنتهم من الاطلاع على مباحث اليونان في علم النبات ، وثالثتُها مرحلة الاهتمام الطبيّ والصيدليّ بالنبات ، ورَابِعَتُهَا مرحلة الملاحظة العلميّة المحْض (1) .

1 ـ مرحلَةُ التدوين اللغويّ :

لقد نشطت حركة التدوين اللغويّ في القرنيْن الثاني والثالث للهِجْرة خاصّة . فقد سعى علماءُ اللغة في هذه الفترة من تاريخ اللغة العربيّة إلى جمع

---

(1) لقد اهتم العرب بالنبات ضمن اهتمامهم بعلم الفلاحة أيضا . وقد أهملْنا الحديث عَمْدا عن هذا الجانب ، لأنّهُ قد خصّ بدراساتٍ سَابِقةٍ .

المتفرّق من مفردات اللغة وخاصّة منها الدّالّة على الأشياء وصفاتها . وتجمّع لهم من ذلك عددٌ كبير من الرسائل في مواضيع شتّى : كالحيوان - مثل الإبل والشّاءِ - والانسان والمطر والسّحاب والبئر . . . الخ . وقد كان النبات من أهمّ المواضيع التي شغلتهم فأفردُوه برسائلَ مستقلّة غلب فيها الجمْعُ وقلّ فيها الترتيب المنهجيّ الدّقيق . واللغويّون الذين ألّفوا في النبات كثيرون (2) . نذكر منهم خاصّة الأصمعيّ (ت . 213 هـ / 828 م) مؤلفَ « كتاب النبات » وأبا زيد الأنصاري (ت . 215 هـ / 830 م) الذي يُنْسَبُ إليه كتابُ « النبات والشجر » وابن الأعرابيّ (ت . 231 هـ / 845 م) الذي نُسِبَ إليه كتابُ « النبات » وكتابُ « النبت والبَقْل » ، وابنَ السكيّت (ت . 246 هـ / 860 م) الذي نُسِبَ اليه كتاب « العشب والبقل » وكتاب « الشجر والنبات » . . . الخ .

والغالب على مؤلّفات هذه الفترة - النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجريَّيْن - صفةُ الرسائل ، والغالب على مُؤَلّفيها الرغبةُ في جَمْعِ اللغة وتدوين مفرداتها المتّصلة بالنبات وصفاته . فعمَل هؤلاء يمثل إذَنْ - في أساسه - مرحلة جمع مفردات « المعجم النباتي » العربيّ . وبما أنّ غايتَهم كانت لغويّةً محضا فإنهم لم يُعْنوا بالبحث عن النباتات في مظانّها ولم يهتمّوا بالبحث في أصناف النبات وأنواعه وأجناسه ولم يحاولوا استيعاب ما في البيئة العربيّة من نباتات بل اكتفوا بتدوين ما بَلَغَهُم من الرّواة وذكره الشعراء في قصائدهم . ونُمَثل لمؤلّفات هذه الفترة بكتاب « النبات »

(2) انظر حول الرسائل المؤلّفة في هذه الفترة : Sezgin : GAS 3/330 - 338 .

للأصمعي ، وهو رسالة صغيرة (3) قد جمع فيها مؤلّفها حوالي ثلاثمائة اسم من أسماء النباتات العربيّة . ولكنّ معظم هذه المفردات قد ذُكِرَ غُفْلاً من التعريف . ويبدو أنّ غاية المؤلّف الأساسيّة من رسالته هي جَمْعُ « مادّة نباتية » مِمَّا تُنْبِتُه أرض الجزيرة العربيّة . وقد غلبت عليه في ذلك الجمع ثلاثةُ اهتمامات بارزة : أوّلها التعريفُ اللغويّ بالأرض المُنْبِتَة (4) ، وثانيها التفريقُ بين النبات والشجر (5) وثالثُها التوزيع الجغرافي لبعض أنواع النبات (6) . على أنّ حديثَه عن هذه الأغراض الثلاثة كانَ متداخِلاً غير خاضع لترتيب معيّن ، يغلب عليه الاستشهاد اللغويّ والشواهدُ الشعريّة على طريقة أهل العصر في التأليف ، وذلك ما جعل - في نظرنا - قيمة هذه الرسالة وأمثالِها لغويّة مَحْضًا ، لا تتجاوز ما ابتغاه واضعُوها من جمع اللغة وتدوين متفرّقها في موضوع مخصوص هو النبات .

على أنَّ القرن الثالث الهجريّ قد شهد ظهور كتاب آخر جليل القدْرِ عظيم الخطر في تاريخ علم النبات عند العرب ، وهو « كتاب النبات » لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوريّ (ت . 282 هـ / 895 م) . وهذا الكتاب لم يكنْ مجرّد رسالة في صفات النبات وأسمائه بل كان موسوعة نباتية في حوالي ستة أجزاءٍ أربعةٌ منها في موضوع النبات عامة واثنان في أسماء النباتات مرتّبة على حروف المعجم . وقد ضاع معظم هذا الكتاب ولم يبق منه إلا بعْضٌ

(3) نشرها هفْنر بعنوان « كتاب النبات والشجر لأبي سعيد الأصمعي » (ط 2 ، بيروت 1908 ، في 48 ص) ، وأعاد نشرها عبد الله يوسف الغنيم ، وعلى هذه النشرة الثانية اعتمدنا في هذا البحث . والملاحظ أن نسبة الرسالة الى الأصمعي قد أثارت جدلا : انظر حسين نصّار : دراسات لغويّة ، ص ص 69 - 70 .

(4) الأصمعي : كتاب النبات ، ص ص 3 - 13 .

(5) نفس المصدر ، ص ص 13 - 19 ، 22 - 23 و27 - 33 .

(6) نفس المصدر ، ص ص 19 - 24 و36 - 37 .

نخصّ بالذكر منه قسمًا مهمًّا من الجزء الخامس يحتوي معجم أسماء نباتية (7) ، إلّا أن معظم موادّ هذا المعجم قد بقي في كُتُبِ العلماء اللّاحقين في الزمن لأبي حنيفة ، فقد كان « كتاب النبات » مصدرا أساسيًّا لمن اهتمّ بعْدَ أبي حنيفة بالنبات ، فاقتبس منه مؤلفُو المعاجم اللغويّة والأطباءُ والصيادلة المؤلفون في الأدوية المفردة ، وقد قام العالم الهنديّ محمد حميد الله بجمع المتفرّق من موادّ الكتاب في تلك المصادر (8) وقد حصل له من ذلك 638 مادّة أضافها إلَى ما نشره من قبل المستشرق برنارْ لوين .

والناظر في هذا المعجم يتبيّن بيسر انتماءَهُ إلى المرحلة اللغويّة . فالمصادر الأساسية التي اعتمدها فيه أبو حنيفة لغوية ، وخاصّة الرواة من الاعراب ، وعلماءَ اللغة ، مثل أبي زياد الأعرابي يزيد بن عبد الله الكلابي (9) الذي يتنزّل بين مصادره منزلةً خاصّة ، والفرّاءِ (ت . 207 هـ / 822 م) وأبي عبيدة (ت . 210 هـ / 825 م) والأصمعيّ (ت . 213 هـ / 828 م) وأبي زيد الأنصاري (ت . 215 هـ / 830 م) وأبي عُبَيْد (ت . 224 هـ / 839 م) وابن الأعرابي (ت . 231 هـ / 845 م) وأبي نصر أحمد بن حَاتم (ت . 231 هـ / 845 م) . . . الخ . ثم إنّه قد نحا نحو سابقيه من علماء اللغة في التمثيل بالشواهد ، فهو يكثرمن إيراد الشواهد إكثارًا ظاهرا (10) ومعظمها من الشعر ـ ديوانِ العرب ـ وبعْضُها من القرآن الكريم والحديث

(7) قد نشره برنار لوين (B. Lewin) ، وفيه موادّ الحروف (أ ـ ز) ، وسيكون على هذا الجزء اعتمادنا الأكبر في هذا البحث ؛ وعدد الموادّ فيه 482 مادّة .

(8) أضاف موادّ الحروف (س ـ ي) ، وسنعتمد هذا الجزء اعتمادا قليلا .

(9) يذكر ابن النديم في الفهرست (ص 44) أنه قدم بغداد أيام المهدي (154 هـ / 771 م ـ 169 هـ / 785 م) وأقام بها أربعين سنةً وقد كان شاعرًا وألف في اللغة ، إلا أنه لم ينسب إليه كتابا في النبات .

(10) المادة الأولى وحدها ـ أراك ـ فيها ثلاثون شاهدا : كتاب النبات ، 1/2 ـ 10 .

النبوي الشريف (11) ، وهو يُكْثِرُ مِن الاسْتِطْرادِ ، إمَّا لِتَفْسِير شاهِدٍ شعريّ أو للبحْث في اشْتِقاقَاتِ المفرَدة المتَحَدَّثِ عَنْهَا أو للتعليق على قول مرْويّ بقول مرويّ آخر ، بل إنّ الاستطراد عندَه قد يكون بالاسترسال في الحديث عن موضوع جديد يُقْحِمُه في المادّة التي يتحدّث عنها إقحاما دون أن يكون له بها علاقة ، مثل الذي فعل في مادّة « أثل » حيث تحدّث عن « الأواني والصِّحَافِ » مبتدِئًا استطرادَهُ بقوله : « وإذْ قد جرى ذكرُ الأواني والصّحاف فسَنَصِفُ منها ما يحضرنا ذكْرُه » (12) .

على أنّ أبا حنيفة قد تجاوز سَابِقِيهِ من المؤلّفين في المادّة النباتية تجاوزا كبيرا . فهو ينتمي الى مدرستهم اللغويّة بدون شكّ ، ولكنّه قد أضاف إلى مناهج سابقيه إضافاتٍ مهمّة قد أخرجت كتابه من حيّز الاهتمام اللغويّ الضيق إلى ميدان الدراسة العلميّة الشاملة . ولا شكّ أن لعِلْمانيَّة أبي حنيفة دورًا في ذلك . فهو لمْ يكن مجرّد جمّاعة للأخبار والنوادر والأشعار والمتفرِّق من شتات مُفْرَدَات اللغة مثل الذي كانَهُ معظم سابقيه ، بل كان عالما موسوعيًا قد عُنِيَ - إضافة الى علوم اللسان - بعلوم أخرى مستجدَّةٍ في عصره ، وخاصّة الحسابَ والفلكَ والطبّ والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات (13) . وهذا التعدّد في المعارف قد جعل أبا حنيفة في نظرنا أوْسعَ أفقًا من سابقيه وأعْرف منهم بموضوع النبات . وقد ظهر ذلك واضحا في كثير من الجوانب الجديدة

(11) من المواد التي ذكر فيها شواهد قرآنية : « أب » ، 38/1 ، و« جنا » ، 92/1 ، و« حصاد » 114/1 ، و« حطام » 141/1 ، و« خضر » ، 150/1 ؛ ومن المواد التي ذكر فيها شواهد من الحديث : « شبرم » ، 61/2 ، و« غبيراء » ، 167/2 ، و« غرقد » ، 171/2 .

(12) ابو حنيفة : كتاب النبات ، مادة « أثل » ، 17/1 . وقد استغرق هذا الاستطراد أربع صفحات : 17 - 20 .

(13) انظر الثبت المفصّل لمؤلفات أبي حنيفة في مقدمة حميد الله الفرنسية للقسم الثاني من كتاب النبات ، ص ص 53 - 56 .

التي يَفْضُل بها كتابُه على الكتب التي ألّفها اللغويّون مِنْ قبلِه . وتتلخّص تلك الجوانب فيما يلي :

أ ـ حجم الكتاب : فهو كتاب كبير الحَجْم متعدِّد الأجزاء بينما كان معظم المؤلّفات الأخرى رسائلَ صغيرة .

ب ـ ترتيبُ المادَّة : فقد كانت المؤلفات السَّابقة غيرَ خاضِعَة في معظمها لترتيب مُعَيّن . بَيْنَما أخضع أبو حنيفة كتابه لنوعيْن من الترتيب : أوّلهما الترتيب الموضوعيّ ، فهو قد قَسَّم الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه إلى أبواب مستقلّة خَصَّ بكلّ باب موضوعًا مستقلاّ من مواضيع النبات والمواضيع المتّصلة به . وقد أحال في القِسْم الأوّل من معجمه على عدد كبير من تلك الأبواب نذكر منها « باب النبات العامّ» (14) و« باب وصف العُشْب العام » (15) « وباب تَجْنِيسِ النبات » (16) و« باب ذكر جماعات الشّجر » (17) و« باب الزَّرْعِ » (18) و« باب الزَّرْع مع القطاني » (19) و« باب النّخْل » (20) و« باب الكرم » (21) و« باب الكَمْأَة » (22) و« باب النبات الطيّب الرائحة » (23) و« باب العُلُوك » (24) و« باب اللّثا

(14) انظر في القسم الأوّل من الكتاب الموادّ 93 ص 62 ، 107 ص 64 ، 109 ص 65 . . . الخ .
(15) نفس المصدر ، المادة 105 ، ص 64 .
(16) نفس المصدر ، المادة 105 ، ص 63 .
(17) نفس المصدر ، المواد 1 ، ص 4 ، 42 ص 40 ، 44 ص 40 .
(18) نفس المصدر ، الموّاد 45 ص 40 ، 99 ص 63 ، 106 ـ 107 ص 64 .
(19) نفس المصدر ، المادّتان 70 ص 45 ، 87 ص 54 .
(20) نفس المصدر ، الموادّ 34 ص 38 ، 35 ص 38 ، 36 ص 39 ، 37 ص 39 . . . الخ .
(21) نفس المصدر ، المادّة 67 ص 45 .
(22) نفس المصدر ، المادّة 41 ص 39 .
(23) نفس المصدر ، المواد 39 ـ 40 ص 39 ، 91 ص 60 ، 94 ص 62 . . . الخ .
(24) نفس المصدر ، المادّة 74 ص 47 .

والصُّمُوغ » (25) و« باب ما يُصْنَعُ من النبات » (26) . . . الخ . وثانيهما ترتيبُ أسماء أعيان النبات على حروف المعجم في الجزْأيْن الأخيرين ، الخامس والسادس من الكتاب . وقد أشار إلى هذا الترتيب في مقدّمة معجمه ـ وقد حذفها المحقق لسبب لم يُبِنْ عنه واكتفى بذكر مقتطف منها في تمْهيده ـ بقوله : « ونجْعَلُ تصْنِيفَ ذلك على توالي حُروف المعْجَم كما تُوالِيهَا العامّة إن شاء الله ، وتصْنيفُها على حروف أوائلها أحبّ إليّ من تصنيفها على حروف أواخرها . وإنّما آثرْنَا هذا التصنيفَ لأنّه أقربُ إلى وِجْدَانِ المطلوب وأهْوَنُ مَؤُونَةً على الطّالب من كلّ تصنيفٍ سِوَاهُ فيما نرى » (27) . إلاّ أنّ هذا الترتيب المعجميَّ شديدُ الاضطراب كثيرُ الاختلال المنهَجِيِّ ، ذلك أنّ المؤلّف لم يُراعِ فيه إلاّ الحَرْفَ الأوّلَ من الكلمة وأهملَ تَتَابُعَ الحروف التالية له ، وهذا ترتيبُ الموّاد العشرين الأولى من حرف الالف : 1 ـ أراك ، 2 ـ اسحل ، 3 ـ أثْأب ، 4 ـ أثل ، 5 ـ أرز ، 6 ـ اشكل ، 7 ـ آء ، 8 ـ ألاء ، 9 ـ أرْطى ، 10 ـ آس ، 11 ـ أسْتَن ، 12 ـ إخْرِيط ، 13 ـ أَفَانٍ ، 14 ـ أقْحُوَان ، 15 ـ أيْهَقَان ، 16 ـ إسْلِيح ، 17 ـ إعْلِيط ، 18 ـ إحْرِيض ، 19 ـ إغْرِيض ، 20 ـ أجْرَد .

ج ـ التعريف العلميّ : فقد تجاوز ظاهرةَ التعريف بالترادُف أو بنسبة النبات إلى نوعه أو إلى موضع منبته إلى التعريف العلميّ الدقيق بوصف النبات وصفا دقيقا ووصف ثمره وطعمه ورائحته . وهذا النوع من التعريف دالّ في رأينا على أن أبا حنيفة يمثل بداية الاهتمام بالملاحظة العلميّة المحْض في دراسة النباتات . ونذكر من أمثلة هذا النوع من التعريف قوله في مادّة « حَلَمَة » :

---

(25) نفس المصدر ، المواد 38 ص 39 ، 118 ص 68 ، 128 ص 72 . . . الخ .
(26) نفس المصدر ، المواد 9 ص 25 ، 93 ص 40 ، 80 ص 52 . . . الخ .
(27) نفس المصدر ، تمهيد المحقّق ، ص 6 .

« ترتفع الحَلَمَةُ دون الذراع ، ولها ورقة غليظة ، وأفنان كثيرة وزهرة مثل شقائق النعمان إلّا أنها أكبر وأغلظ ، والحَلَمَةُ كثيرة البراعيم والأفنان كأنّ براعيمها حَلَمُ الضروع ، والفرق بينها وبين شقائق النعمان أنّ نورةَ شقائق النعمان ترتفع في رأس قضيب طويل أجردَ ، وليس بشجرة الشقائق من كثرة البراعيم مثل ما للحملة » (28) ؛ وقوله في مادة « رقع » : « الرقع شجرة عظيمة كالجوزة ، ساقها كساق الدُّلْبَةِ ، ولها ورق كورق القرع أخضر فيه صُهبة يسيرة ، ولها ثمر أمثال التين العِظَام كأنه صغار الرمّان ، لا ينبت في أضعاف الورق كما ينبت التين ولكن من الخشب اليابس يتصدّع عنه ، وله معاليق وحِمْلٌ كثير جدّا » (29) .

د ـ حديثه عن منافع النبات : وهي صنفان ، عامّة وخاصّة . أمّا المنافع العامّة فمتّصلة باستعمال النبات المتحدَّث عنه في الحياة العامّة . وقد خصّ المؤلف تلك المنافع بأبواب مستقلّة في الأجزاء الأولى من الكتاب ، مثل « باب السّواك » (30) و« باب الدباغ » (31) و« باب القِسيِّ » (32) و« باب ما يَصْبُغُ به من النبات » (33) . . . الخ . وقد أعاد الحديث عن تلك المنافع ـ وكثيرٍ غيرِها ـ عند تعريفه بأعيان النبات في معجمه . أمّا المنافع الخاصّة التي اهتمّ بها أبو حنيفة فمتّصلة بالمداواة والعلاج خاصّة . وهو باب جديد قد أدخله هو في كتب اللغة ، إذْ لا نعرف إلى حدّ الآن عالما لغويّا آخر ممن ألّفوا في النبات قد اهتمّ به . على أن اهتمام أبي حنيفة أيضا لا يتجاوز

---

(28) نفس المصدر ، المادّة 221 ، ص 102 .

(29) نفس المصدر ، المادّة 446 ، ص 198 .

(30) قد أحال عليه في الموادّ 1 ص 3 ، 72 ص 46 ، 141 ص 75 . . . . الخ .

(31) نفس المصدر ، المادّة 8 ص 23 .

(32) نفس المصدر ، المادّتان 1 ص 6 ، 117 ص 67 . . . الخ .

(33) راجع التعليق 26 .

بعض الإشارات الصغيرة ، نذكر من ذلك مثلا قولَه عن « اسحار » إنّ له حَبّا « يُؤكَلُ ويُتَدَاوَى به ، وفي وَرَقِهِ حُروفَة ، لا يأكله الناس ولكنّه ناجح في الإبل » (34) ؛ وقولَه عن « الأيْدع » إنّه « تُداوَى به الجراحات » (35) ؛ وقوله عن « أمّ وجع الكبد » إنّها سُمّيَتْ بهذا الاسم « لأنها شِفَاءٌ من وجع الكبد والصَّفرِ . اذا غُصَّ بالشرسوف يسقى من عصيرها » (36) ؛ وقولَه عن « الاسحفـان » انه غـير صالـح للرّعي « ولكن يُتَـدَاوَى بـه من النَّسَا » (37) . . الخ .

وما يمكن استنتاجُه ممّا سبق هو أن أبا حنيفة قد طوّر التأليف في كتب النبات اللغويّة وأدخل عليه منهجا جديدا لم يكنْ مُتَعَارفًا من قَبْلِهِ عند علماء اللغة . وأهَمُّ سِمَاتِ ذلك المنَهج الجديد إحْلاَلُ أبي حنيفة في كتابه ما نريد تَسْمِيَتُهُ بـ « الفَقْرَة النّبَاتيّة »ونَعْني بالفقرة النّباتيّة التعرِيف المتكامِل بالنّباتِ ، وهي ممّا اختصت به كتب الأطباء والصيادلة المؤلَّفة في الأدوية المفرَدةِ ، وقد ركّزها هَؤُلاَءِ على أركان قارّة متفاوتة العدَدِ من عالم لآخر ، وقد ظهر منها في كتاب أبي حنيفة أربعةُ أركان : أوّلها التعريف اللغويّ المحْضُ ، وثانيها التعريف العلمي بخصائص النبات ، وثالثُها التعريف بمنافعه ، ورابعُها التعْرِيف بمواضِعِ نباته . ونذكر من الفقرات « التامَّة » عندهُ ما أوردهُ في مادّتَيْ « ثيل » و« حِنَّاء » ، فقد عرّف النبات الأول بقوله : « قال أبو عمرو : الثيل يقال له النجْمُ ، والواحدة نَجْمَة (. . .) ، وقال بَعْضُ الرواة : الثيل نبات يَشْبِكُ الأرض (. . .) ورقُه كورق البُرّ الا أنه أقصرُ ، ونباتُه فَرْشٌ على

(34) أبو حنيفة : كتاب النبات ، 1 / 36 (المادة 27) .
(35) نفس المصدر ، المادّة 38 ص 39 .
(36) نفس المصدر ، المادّة 59 ص 43 .
(37) نفس المصدر ، المادّة 61 ص 44 .

الأرض يذهب ذهابا بعيدا ، ويشتبك حتى يصير على الأرض كاللِّبْدَةِ ، ولذلك سُمِّيَ الوَشِيجَ (. . .) ، وله عُقَدٌ كثيرة وأنابِيبُ قِصَارٌ ، ولا يكاد ينبت إلّا على ماءٍ أو في موضع تحتَه ماء ، وهو من النبات الذي يُسْتَدَلُّ به على الماء » (38) ، وعرّف النبات الثاني بقوله : « حنَّاء : واحدتُه حِنّاءَةٌ ، وبه سُمِّي الرجل حِنّاءَةً ، وأصله الهَمْزُ (. . .) وشجر الحنّاء شجر كِبَار مثل شجر السِّدْرِ ، وللحنَّاءِ فاغية وهي نوْرتُه ، وبزْره عناقيد متراصِفة إذا تفتّحت أطرافُها شَبَّهْتَها بما يَنْفتح من الكُزْبُرَةِ إلّا أنّها طيّبة الرائحة ، وإذا تَّحاتَّ نوْرُه بقيت له حبّة غبْراءُ صغيرة أصغر من الفُلْفُلَةِ (. .) وشجره يورِّق في العام مرتيْن أي يؤخَذ ورقُه ، والحنَّاء بأرض العرب كثيرٌ . فأما الخِضَاب فقد وصفْنَاه في باب ما يُخْتَضَبُ به من النبات » (39) .

على أنّ هذه الطريقة لم تكن ـ فيما يبدو لنا ـ من ابتكار أبي حنيفة . فهي قد ظهرت لأول مرّة في كتب الأدوية المفردة ، وأول كتاب ـ حسب علمنا ـ عرف فيه العربُ هذه الطريقةَ هو كتاب « المقالات الخمس » ـ ويسمّى أيضا « كتاب الحشائش » ـ لديوسقُرِيديس ، وقد نُقِلَ هذا الكتابُ الى العربية في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة ، وقد كان له أثر واسع فيما ألّفَ العربُ في الأدْوية المفرَدة منذ القرن الثالث . وليس غريبا من عالِم موسوعيّ مثل أبي حنيفة أن يسعى إلى الاطّلاع على تلك المؤلفات وأن يقتبس منها . ولعلّ أصدَقَ دليل على ذلك ميْلُه إلى ذكر الخصائص العلاجية لبعض النباتات ، ثم إشارته في إحدى موادّ كتابه إلى « المتطبّبين » ـ وهم الأطباء ـ ، فقد قال عن « العُنْصُل » ـ فيما رواه عنه ابن البيطار ـ : « ويعْظُم حتى يكون مثل الجُمْع ، ويقع في الدواء ، ويقال له العُنْصُلَان أيضا ، وأصوله

(38) نفس المصدر ، المادّة 149 ص 82 .

(39) نفس المصدر ، المادّة 227 ص 106 .

بِيضٌ (. . .) والمتطبّبون يسمّونه الاشقيل » (40) . إلاّ أن هذا الاقتباس من الكتب الأخرى لا ينقص من أهمية أبي حنيفة وكتابه في تاريخ علم النبات عند العرب ، ولو لم يكُنْ له إلاّ فضْلُ جَمْعِ المادّة النباتية العربيّة وتَبْوِيبها تبويبًا علميّا منهجيّا لكفاه ذلك فَخْرًا .

2 ـ مرحلة الترجمة :

لقد عُنِيَ العرب من بين ما عُنُوا به من العلوم الأعجميّة بعلم النبات . ولكنّ عنايَتَهُم به تُعْتَبر ضَئِيلَةً إذا قيست بما أَوْلَوْهُ للطب والفلسفة من عناية . فالكُتب النباتية الأعجميّة التي وصلتنا ترجماتُهم لها نادرة جدّا ، لا يبلغ عددُها الخمسةَ ، وهي :

أ ـ كتاب « النبات » لأرسطو : قد وصفه اليعقوبي (ت . بعد 278 هـ / 891 م) في « تاريخه » وقال عنه إنّه « في الابانة عن عِلَلِ النبات وكيفيّاته وخواصِّهِ وعـوامّه وعلل أعضـائه والمـواضع الخـاصّة بـه وحركاته » (41) . ولكن يبدو أن العرب لم يَنْقُلُوا هذا الكتاب بل نقلوا تفسيرَه الذي وضعه نِيقُولَاوسُ الدمشقي ، وقد نَقَلَ هذا التفسير إسحاقُ بنُ حنين وأصلَحه ثابت بن قرّة (42) بعنوان « تفسير كتاب أرسطاطاليس في النبات » .

(40) انظر كتاب « الجامع » لابن البيطار ، 2/138 ، وقد نقل حميد الله هذه الفقرة : كتاب النبات ، 2 / 156 ـ 157 .

(41) اليعقوبي : التاريخ ، 1 / 131 .

(42) انظر الفهرست لابن النديم ، ص 254 ، وعبد الرحمان بدوي : Transmission de la philosophie grecque p , 58 et 108 .

ب ـ كتابُ « أسباب النبات » **لثاوُفْراسْطس** (372 ـ 287ق.م) وهو كتاب يبحث في الفروق بين النباتات ، اعتمادًا على فلسفة أرسطو ، وقد عرّب هذا الكتابَ ابراهيم بن بكّوس (43) .

ج ـ كتاب « في النبات » لجالينوس . ولانعرف عن هذا الكتاب وترجمته العربية شيئا لأنه قد ضاع ولم يبْقَ إلاّ في ترجمَة لاتينيّة موضوعة عن النص العربيّ (44) .

د ـ كتاب « الحشائش » لديوسقريديس (من القرن الأوّل الميلادي) ويسمّيه العرب كتاب « الخمس مَقالات » أيضا ، لانه مقسم إلى خمس مقالات ، وهو في الحقيقة ليس كتابا خالصا في النباتات بل هو في الأدْويَة المفرَدة قد تحدّث فيه مؤلفُه عن المنافع العلاجيّة لعدد هائل من الموّاد المنتمية الى المواليد الثلاثة ، النبات والحيوان والمعادن ، إلاّ أن حظ المادّة النباتية كان أغلبَ ، ولذلك سُمِّي بكتاب الحشائش . ومؤلفه ـ ديوسقريديس ـ قد غَلَبَ النّباتُ عندَهُ على الطبّ ، وقد احتوى كتابُه على حوالي 500 نبات جديد . وقد أعانَه على اكتشاف هذا العدد الكبير من النباتات تَرْحَالُه الطويل وخاصّة في رفقة الجيش الرُّومَانيّ ـ وهو يقوم بالخِدْمَة العَسْكَرِيّة ـ حوالي ثلاثين سنة (45 ـ 75 م) . وقد حَظِيَ كتابُه بمنزلة رفيعة بين اليونانيّين أنفسِهم ، فقد قال فيه جالينوس : « تصفَّحْتُ أربعَةَ عشر مُصْحَفًا في الأدوية المفردة لأقوام شتّى فما رأيت فيها أتمّ من كتاب دياسقوريدوس (. .) وعليه احتذى كلّ من أتى بعدَه ، وخلّدَ فيه عِلْمًا نافعًا وأصلاً جامعا » (45) .

(43) ابن النديم : الفهرست ، ص 252 ، وكذلك : Sezgin : GAS, 3/313 .
(44) انظر سزكين في نفس المصدر السابق ، 3/314 .
(45) عن « طبقات الاطباء والحكماء » لابن جلجل ، ص 21 .

لَقِيَ الكتابُ حُظْوَةً كبيرة عِنْدَ العَرَبِ ، فنقله حُنَيْن بن اسحاق (ت . 260 هـ / 873 م) الى اللّغة السريانيّة ، ثمّ اعتنى به اصطفن بن بَسِيل - وهو أحَدُ تلاميذ حنين - فنقله الى العربيّة من اللغة اليونانية مباشرة ، إلاّ أن ترجمة اصطفن لم تكن جيّدة فأعاد فيها حنين نفسُه النظرَ وأجازها ، وقد كان ذلك في زمن الخليفة العبّاسيّ جعفر المتوكّل (232 هـ / 847 م - 247 هـ / 861 م) (46) ، إلا أن هذه الترجمة - رغم مراجعة حنين لها - قد بقيت تثير مشاكل جمّة ، وخاصة في مستوى المصطلحات ، ذلك أن كثيرا من الأدوية المفردة التي تضمّنها الكتاب يونانيّةٌ مَحْضٌ ليس لها مقابلاتٌ في اللغة العربيّة ، فكان نقلُها الى العربيّة - لذلك - غيرَ ممكن . ثم إنّ من مصطلحاتِ الكتاب مَالَهُ مقابِلٌ في العربيّة لكن المترجمَيْنْ يجهلانه فكانا في مواضع كثيرة من الترجمة يكتفيان برسم المصطلح اليوناني بأحْرف عربية راجِيَيْنْ أن يأتيَ بعدَهُما من يستطيع اكتشاف المصطلحات العلميّة العربيّة المؤدّية للمصطلحات اليونانيّة المستَعْصِيَة عليهما (47) . وقد لخّص ابنْ جلجل الاندلسي ، فيما رواه عنه ابن أبي أصيبعة ، هذه المشكلة بقوله : « فمَا علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقْتِهِ له اسما في اللسان العربيّ فسّره بالعربية ، وما لَمْ يعلم له في اللسان العربي اسما تركَهُ في الكتاب على اسمه

(46) قد نشر هذه الترجمة قيصر دبلار (C. Dubler) في الجزء الثاني من اطروحته : «La Materia Medica de Dioscorides : Transmision medieval y renacentista» por Cesar E. Dubler (6 vol), 1er éd. Barcelona - Tetuan, 1952 - 1959 —

(47) نذكر من تلك المصطلحات - مستخرجةً من طبعة دبلار - مثلا : أسَارُون (ص 18) ، أَصْبَالأتُش (ص 29) ، أغالوخُن (ص 31) ، نَشْقَفْشُن (ص 31) ، الانْيُون (ص 34) ، اقاقِلِيس (ص 87) ، أَلِيمُون (ص 88) ، أقَاقيا (ص 96) ، أطا (ص 99) ، اغْرِيالاَ (ص 100) . . الخ ، وكلها أسماء نباتات .

اليُونَانِيّ ، اتكالا منه على أن يبْعَثَ الله بعدَهُ من يعرف ذلك ويفسّره باللسان العربيّ » (48) .

فالكتاب ـ إذَنْ ـ في ترجمته العربيّة لم يكن سهْلَ التناوُل لما يثيره من مشاكل في المستوى اللغوي الاصطلاحي خاصّة . فقد بقي فيه عدَدٌ هائل من النباتات مجْهُولاً . وقد بقي تأثيرُ الكِتَابِ ـ لذلك ـ محدودًا في كُتب الطبّ والصيدلة العربيّة طيلة القرنيْن الرابع والخامس الهجريّيْن ، وكان المؤلفون في الأدْوية المفردة حَذِرين في الاعتماد عليه خشية الوقوع في الخطإ . وذلك يعني أنّ نباتاتٍ كثيرةً ممّا دخل الثقافة العربيّة عن طريق الترجمة بقيت غريبةً مجهولةً لم يُنْتَفَعْ بها ولم تأخذ حَيِّزَهَا في المعجم النباتي العربيّ الذي كان أبو حنيفة قد وضع أسُسَه . إلاّ أنّ العلماءَ العربَ لم يقفوا موقف العجْز أمام تلك المشاكل ، بل واصلوا الاهتمام بالكتاب وبترجمته البغْدَادِيّة خاصّة ، لرفع قِنَاع العُجْمَةِ عمّا بقي فيه مجهولا من أعيان النبات خاصّة . وقد كَثُرت ـ من أجل ذلك ـ مراجَعَاتُ الترجمة البغداديّة وشروحُها ـ اعتمادا على الأصل اليونانيّ أحيانا ـ منذ النصف الأول من القرن الرابع للهجرة (49) . وأهمّ تلك المراجعات إطلاقا هي المراجعة التي تمّت في الأندلس بعد أن أهدى ملك القسطنطينية إلى الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر سنة 337 هـ / 948 م نسخة يونانيةً مُحَلاَّةً بالرسوم والصُّوَر من « كتاب الحشائش » . ثم أرسل نفسُ الملك بطلَبٍ من الخليفة الأموي عالما اسْمُه نِقُولاَ الراهب يُجِيدُ اللسانَيْن اليونانيَّ واللاتينيَّ لإعانة علماء قرطبة على الاستفادة من تلك النسخة اليونانية الجيّدة للكتاب . وقد

(48) ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2/46 ـ 47 .

(49) انظر حول ترجمة الكتاب ومراجعاته وشروحه : « انتقال مقالات ديوسقريديس إلى الثقافة العربية : ترجمةً ومراجعةً وشرحًا » لابراهيم بن مراد في حوْليّات الجامعة التونسيّة ، 24 (1985) ، ص ص 247 ـ 291 .

أقبل أولئك العلماءُ على الترجمة البغداديّة يعيدون النظر فيها ويصحّحون أخطاءَها ويزيلون العُجْمَةَ عمّا بقي فيها مجهولا . وقد لخّص ابن جلجل ـ وقد كان أحد المراجعين ـ فيما رواه عنه ابن أبي أصيبعة النتائجَ التي انتهت إليها تلك الجماعةِ بقوله : « فصحّ بِبَحْثِ هؤلاء النَّفَرِ الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريديسَ ما أزال الشكَّ فيها وَأَوْجَبَ المعرفةَ بها بالوقوف على أَشخاصها وتصحيح النطْقِ بأسمائها بلا تصحيف ألّا القليلُ منها الذِي لا بَالَ بِهِ ولا خَطَرَ له ، وذلك يكون في مِثْلِ عشرة أدْوِيَةٍ » (50) . إلاّ أن هذه المراجعَةَ ـ على أهمّيتها ـ لم تَحُلّ القضايا الاصطلاحية المتبقّية في الترجمة البغداديّة حَلاّ جذويّا وفعْليّا ، لأنّ أصحابَها ـ وإنْ لم يسْتَعْصِ عليهم إلاّ حوالي عشرة مصطلحات يونانيّة كما ذكر ابن جلجل ـ كانوا يلْجَأون في معظم الحالات إلى « تعريب » المصطلحات الأعجميّة اليونانية بمصطلحات أعجمية أخْرى لاتينيّة وبربريّة ، وذلك ما جعل الانتفاع بها محدودا لا يتجاوز بلاد الأندلس والمغرب ، وجعل الكتَاب في حاجة الى مزيد من الشرح والتعريب .

وقد تصدَّى لتلك المهمّة ـ فعْلاً ـ ثَلاَثَةٌ من جِلَّة علماء الأندلس هم ابن جلجِل (ت . بعد 384هـ / 994 م) في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس » وقد استفاد فيه من المراجعة الأندلسية خاصّة فكان صَدًى لها ، ثم أبو العباس أحمد بن محمد النباتي (ت . 637 هـ / 1239 م) في كتابه « شرح أدوية دياسقوريدوس وجالينوس والتنبيهُ على أوهام مترجميها » ، ثم ابن البيطار (ت . 646 هـ / 1248 م) في كتابه « تفسير كتاب دياسقوريدوس » . وآخر هذه الكتب الثلاثة كان أهمّها لأسباب ثلاثة : أولها تمكّنُ ابن البيطار من مادّة « كتاب الحشائش » تمكّنا لم يبلُغْه أحدٌ من قبله

(50) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2 / 48 .

بشهادة تلميذِه ابن أبي أصبيعة الذي قال فيه « وأتْقَنَ درايةَ كتاب ديسقوريديس اتقانا بلغ فيه إلى أنْ لا يكادُ يوجَدُ من يجاريه فيما هو فيه » (51) ؛ وثانيها وقوفُه على أعيان النباتات التي ذكرها ديوسقريديس في مواضعها وتحقّقه من أسمائها العربية في البلاد العربيَّة نفسِها أثناء رحلته العلميّة الطويلة التي زار فيها بلاد اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس ، إضافة الى كامل البلاد العربية ؛ وثالثُها كونُه آخر الشارحين ، وذلك يعني استفادتَه من أعمال سابقيه الذين تناولوا « كتاب الحشائش » بالمراجعة والشرْح ، والمقدّمة التي وضعها ابن البيطار لكتابه تبينّ أن المشاكل التي يثيرها كتاب ديوسقريديس قد بقيت قائمة حتى القرن السابع الهجريّ ، فقد قال : « لمّا وقفت من كتاب الفاضل دياسقوريدوس على ما تقصر عنه هِمَمُ جماعة من المتشوّفين ورأيت استعجامَ أسماء أشْجَارِه وحشائشه على كافّة المتعلّمين وعامّة الشَّادِينَ وتواري حقائقه على غير واحد من الشجّارين والمتطبّبين عزمْتُ بعون الله تعالى على تقريب المرام في ترجمته وتسهيل المطلب في تفسير أسْمَاء أدويته لأكْشف عن وَجْهِ مقاصده قِنَاعَ عُجْمَتِه وأبرِّزَه كالبدْر في هَالَتِه » (52) . وقد تمكّن ابن البيطار - فِعْلاً - اعتمادا على تجربته العميقة في دراسة النبات ومعرفتِه الواسعة بأعيانه من كشف قناع العُجْمَةِ عن جلّ المصطلحات اليونانية التي بقيت مجهولةً في ترجمة اصطفن وحنين ، بعد أن اكتشف تلك النباتَاتِ في البلاد العربيّة فعرّبها بالأسماء العربيّة التي تُعْرَفُ بها ، ولم يَسْتَعْصِ عليه إلاّ عدَدٌ ضئيل من النباتات لا يتجاوز الثّمَانيةَ .

(51) نفس المصدر ، 2 / 133 .

(52) ابن البيطار : تفسير كتاب دياسقوريدوس ، ص 1 ظهر .

وأهمّ النتائج التي نخرج بها عن مرحلة الترجمة هذه :

أ - أنّها كانت مرحلةَ اتصال بينْ الثقافة النباتية العربيّة والثقافات الأعجميّة ممثَّلَةً في الثقافة اليونانية ، وقد أفادتْ منها الثقافةُ العربيّة أيّما إفادَة بالأخْذ عن الثقافة اليونانيّة والاقتباس منها ، فتعرّف العَرَبُ أثناءَها على نباتات جديدة أضافُوها الى زادِهِم النّباتيّ الذي كان أبو حنيفة من قبل قد عرّف به ، فهي إذن مرحلة اقتباس وإضافة .

ب - أنّ هذه المرحلة لم تتوقّفْ في القرن الثالث للهجْرة بترجمة كتاب ديوسقريديس ، بل تواصلت حتى القرن السابع بتناوُل هذا الكتاب بالمراجعة والشّرْح حتى أصبح على صورة جَيِّدَةٍ في القرن السّابع على يَدِ ابن البيطار .

ج - أنّ هذه المرحلةَ كانت مرحلة علميّةً لأنّ العربَ قد تعرّفوا - اعتمادًا على ديوسقريديس - على الخصائص العلميّة والمنافع الطبيّة لنباتات كثيرة تُوجَدُ على أرضهم ، إلاّ أن الجانب اللغوِيّ الاصطلاحيّ فيها كان كبيرا أيضا لا يُسْتَهَانُ به ، ولذلك يمكن اعتبارُها مواصلةً للمرحلة الأولى - اللغويّة - التي كان أبو حنيفة أحسنَ مُمَثّلٍ لها .

3 - مرحلة الاهتمام الطبّي بالنبات :

يُعْتَبر النَّبَاتُ أهمّ المواليد الثلاثة في صناعة الأدوية ، لأنّه أكثرُ تعدُّدًا وتَنَوُّعًا وأيْسَرُ مَنَالاً . ولذلك كَبُر اهتمامُ الاطباءِ والصيادلة العرب به . فلم يَخْلُ كتابٌ من كتبهم من الحديث عن منافعه ، وخاصّة فيما أَسْمَوْهُ بالأدوية المفردة . إلاّ أنّ الحديثَ عن الأدوية المفردة لم يكن دائما مستقلاّ عن الحديث العامّ في الطبّ والصيدلة بل كان جُزْءًا منه يُفْرَدُ بباب خاصّ ضمن أبواب أخْرَى تتّصل بالطبّ والصيدلَة عامّة . وقد بدأت هذه الطريقةُ عند العرب منذ القرن الثالث الهجريّ وتواصلت حتى القرن الثاني عشر . فهي الطريقة التي اتّبعها علي بن ربّن الطبريّ (ت . بعد 240 هـ / 855م) في كتابه « فردوس

الحكمة » الذي خصّص البابَ الأوّل من المقالة الثانية من النوع السادس منه للأدوية المفردة والعقاقير النباتيّة ، وأبو بكر محمّد بن زكرياء الرازي (ت . 313هـ / 925 م) في « الكتاب الحاوي » الذي جعل القسمَ السّابع منه « في صيدلة الطبّ » ، وأبو القاسم الزهراوي (ت . 404 هـ / 1013 م) في كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » الذي خصّص بابَهُ التاسع والعشرين للأدوية المفردة ، وأبو علي ابن سينا (ت . 428 هـ / 1037 م) في كتابه « القانون » الذي خصّص البابَ الثاني منه للأدوية المفردة . وقد تواصلت هذه الطريقة حتى وقت متأخّر اذ نجدها مُتَّبعَةً في « تذكرة أولى الألباب » للشيخ داود الأنطاكي (ت . 1008 هـ / 1599 م) الذي خصّص الجزء الأول من كتابه للأدوية المفردة ، وفي كتاب « الجوهر المكنون من بحر القانون » لعبد الرزاق بن حمّادوش الجزائري (ت . بعد 1168 هـ / 1754 م) الذي تحدّث في الجزء الرابع من كتابه عن الأدوية المفردة . وهؤلاء العلماء - وأمثالهم مِمّن عُنُوا بالأدوية المفردة عناية جزئيةً - لم يكونوا صيادلَةً ولا علماءَ نباتٍ . لذلك غلب عليهم في أحاديثهم عن النباتات الاقتباسُ من غيرهم ، والاهتمامُ بمنافع النباتات العلاجيَّة أكثر من الاهتمام بالنباتات في حدّ ذاتها .

على أنّ الكتب المستقلّة المُؤَلّفَةَ في الأدوية المفردة كانت أكثرَ عددًا ، وقد بدأت في الظهور أيضا منذ القرن الثالث للهجرة . ويبدو أن أول من ألّف كتابا مستقلّاً فيها هو اسحاق بن عمران (ت . 279 هـ / 892 م) العراقيّ ثمّ الإفريقيّ التونسيّ ، فقد وضع هذا العالِمُ الفيلسوفُ كتابًا بعنوان « الأدوية المفردة » (53) ، وقد بقيت لنا من هذا الكتاب شواهدُ أخذَها عنه أحمد الغافقي في كتابه « الأدوية المفرَدة » وابن البيطار في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، وجملةُ الشواهد الواردة منه عند ابن البيطار 180 في 161

(53) انظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2 / 36 .

مادّة ، ثلاثة عشر منها في التعريف اللغوي أو التعريف بخصائص الأدْوية ، واثنان وعشرون في النبات والمدَاوَاةِ ، وستّة وثلاثون في النبات ، وأربعة عشر ومائة في المداواة والعلاج (54) . وأهمُّ ما يُسْتَنْتجُ من تلك الشواهد : أن ابن عمران كان يَبْنِي موادّ كتابه على أركان أساسيّة : أوّلُها التعريف اللغويّ وثانيها ذكرُ طبيعة النبات من حيثُ القوّةُ والدَّرجة من الحرارة والبرودَة واليبوسة والرطوبة ، وثالثُها وصْفُ النبات وصفًا علميّا دقيقًا ، ورابعُها ذكر خواصِّه العلاجية من حيث المنافعُ والمضَارّ ، وخامسُها ذكر أَبْدَالِهِ في حَالِ انعدامه . ثم إنّ ابن عمران أدخل في كتابه نباتاتٍ جديدةً ممّا تعرّف عليه في بلاد المشرق قبل مجيئه افريقيةَ ، ولم يعرفه اليونانيّون من قبله ، مثل الأذَرْيُون والبَهْمَن والحماحم والخيار شنبر والريباس والشاهِسْفَرم والصندَل والقاقُلَّى والقَرَنْفُلِ والمحْلَبِ . . . الخ . إلّا أنّ همّ ابن عمران الأكبَر من حديثه عن النباتات ـ القديمة والجديدة ـ كان البحثَ في منافعها الطبيّة ، فغلب على تعريفاته النباتيَّة الايجازُ والاختصار .

وقد تواصلَ التأليف في الأدْوية المفردة والحديثُ عن النبات فيها في القرون التالية للقرن الثالث ـ حتى القرن السادس ـ على طريقة اسحاق بن عمران ، وخاصّة في بلاد المغرب والاندلس . ومن أهم الكتب التي ظهرت في هَذه المدّة كتابُ « الاعتماد في الأدْوية المفردة » لأبي جعفر أحمد بن الجزّار القيروانيّ (ت . 369 هـ / 980 م) وكتابُ « الأدْوية المفردة » لحامد بن سَمْجُون (ت . بعد 392 هـ / 1001 م) وكتاب « الصيدَنة » لأبي الريحان البيروني (ت . 440 هـ / 1048 م) وكتاب « الأدْوية المفردة » لأبي المطرّف عبد الرحمان بن وافد (ت . بعد 467 هـ / 1075 م) . والْكتاب الأوّل من بين هذه الكتب أي كتاب « الاعتماد » يستحقّ أن نقف عنده قليلا لأهمّيته التّاريخيّة ، والعلميّة . فقد ألّفه ابن الجزّار قبل سنة 334 هـ / 945 م ،

(54) انظر تفصيل الحديث عن تلك الشواهد في : « المصادر التونسية » لابراهيم بن مراد : 1 / 126 ـ 128 .

وكان غَرَضُه مِن تأليفِه أتمامَ « أوْجُهِ النقص » عند سابقيه ممّن تحدّث في الأدوية المفردة ، من القدماء ـ أي اليونانيّين ـ والمحدَثين ، ويعني بهم العَرَبَ . وقد لخّص ابن الجزار أوجُهَ النقص عند سابقيه في مقدّمة كتابه بقوله : « إنّ معرفَة الأدويةِ المفردةِ ومنافعها بابٌ عظيم القَدْرِ جَلِيلُ الخَطَر في صِناعَةِ الطبّ ، ولم أرَ لأحَدٍ من الأوائل المتقدّمين ولا لِـمَنْ تَشَبَّهَ بهم وقَفَا آثارَهُم من المتعقّبين في ذلك كتابا جامعا مرْضيّا ولا كلامًا شافيا بحسب ما يجب أن يُؤَلَّفَ في هذا الباب الكريم المنفَعةِ العظيم الفائِدَةِ في معالجَة الأسقام والأدْواء إلاّ الرجلَ الذي يُسمَّى دياسقوريدوس ، وَجَالينوس ، فإن هذَيْن الرجُلَيْن لا نهايةَ وراءَهُما ولا حِجَابَةَ بعدهما فيما عانياه من هذا الفنّ . غير أنّا وجدْنا ما عَانَيَا من ذلك قد لحقه التقْصِيرُ عن بلوغ نهاية المدْح في ثلاثة أوجُهٍ : أحدُها أنّ دياسقوريدوس ذكر أكثرَ منافع الأدوية ومضارّها ومُنَاسِبَها والمختار منها ، ولم يذكر طبائعَها ولا كمّيتَها وقُوّةَ كلٍّ واحدٍ منها في أيّ درجَةٍ هو من حرارة أو بُرُودَةٍ أو رطوبة أو يُبُوسَة . أمّا جالينوسُ فإنّه ذكر قُوَى أكثرها ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضَارّها وخواصِّها المخصُوصَة بها (. . .) . والوجْهُ الثّاني : أن كثيرًا من الأدوية التي أَلْقَيَاهَا في كُتُبِهِمَا مَجْهولٌ غيرُ معروف في اللسان العربيّ ، وكثيرٌ منها مَعْدُومٌ غيرُ موجود . والوَجْهُ الثالث : أنهما تركا ذِكْرَ كثير من الأدوية المفردة التي لَا غَنَاءَ لأحَدٍ من الأطباءِ عن عِلْمِهَا ومعرفتها لمعلوم منفعَتِها وكَثْرة الحاجَة الى استعمالها ، فإنّما يوجد القولُ عليها مُفَرَّقًا في كتب كثيرة وأماكِنَ مُخْتَلفة . فلمّا كان الأمرُ في هذا الفنّ من العِلْمِ على ما بيَّنّا حُمِلْنا على العناية بتأليف كتاب أذكُر فيه الأدويةَ التي عليها اعتمادُ الأطِبَّاء في معالجة الأدْواء » (55) .

(55) ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ص 113 ظ ـ 114 و ، وانظر نصّ هذه المقدّمة محقّقا في بحثنا « المصادر التونسيّة » ، 1/ 132 ـ 133 .

قَسَّم ابنُ الجزّار كتابَه إلى أربع مقالات ، ورتّب الأدويةَ المفردةَ فيه حسب قُواها ، فجعل أدويةَ الدّرجة الأولى في المقالة الأولى ، وأدويةَ الدّرجة الثانية في المقالة الثّانية ، وأدويةَ الدّرجة الثالثة في المقالة الثالثة ، وأدويةَ الدّرجة الرابعة في المقالة الرابعة ؛ وهو ترتيبٌ صعْبٌ يدُلُّ على مَدَى خِبْرةِ ابن الجزّار بطَبَائع الأدوية وقواها . وجملةُ الأدوية التي تحدّث عنها 278 دواء ، تتنزّل الأدوية النباتيّة بينها المنزلةَ الأولى ، إذْ يبلغ عدَدُها 219 دواء ، أما بقية الأدوية فمعظمُهَا مَعْدَنِيّ (56) .

وعند النظر في موادّ هذا الكتاب النباتيّة نلاحظ بلُوغَ مرحلة الاهتمام الطبّي بالنبات عند العرب درجةً من النضج كبيرةً ، ذلك أنّ معرفةَ العرب بالنباتات الطبيّة قد بَلَغَتْ مع ابن الجزّار درجةً فائقةً من الدقّة والوضوح . فَهُمْ قد خبروا قُواها وطبائعَها خبرةً جيّدة جعلت ابن الجزّار يرتّب موادّ كتابه حسب القُوى والطبائع ، ثم إنّهم قد أجادوا معرفةَ منافع النباتات العلاجيّة ، وذلك ما جعلَ ابنَ الجزّار يطيل الحديث في تلك المنافع ويتوسّع فيه توسُّعًا ظاهرا (57) . إلاّ أنّ تلك المعرفةَ الدقيقةَ بالخصائص الطبيّة لم تَصْحَبْها معرفةٌ تماثلها بتَجْنِيس النبات وتصنيفه . فالخَلْطُ بين الحشيش والشجر مثلاً

(56) عدد المواد المعدنية 45 ، أما بقية المواد وعددها 14 فمختلفة الأنواع . والملاحظ أن عدد الأدوية التي تحدّث عنها ابن الجزّار قليل إذا قيس بما انتهت إليه معارف عصره ، ولكنّ ذلك كان منه متعمَّدا ، فهو لم يتحدّث عن الأدوية الحيوانية لأنه قد خصّها بكتاب مستقلّ . ولم يتحدّث عن الأغذية ضمن الأدوية النباتية لأنه ألّف فيها كتابا هو « مصالح الأغذية » . وقد أوجز هو بنفسه أسباب اختصاره في كتابه بقوله : « واقتصرنا من كثير على قليل لوُجُوهٍ : أحدُها حبّ الاختصار وتركُ الاكثار ، والثاني أنّا أبَيْنا ذكْرَ الأدوية التي هي مجهولة في بلدان العرب وإن كانت عند أطِبَّاءِ العجم معروفةً ، لقلّة منفعتنا نحن بذلك ، والثالث أنّ ما كان منها مشهورًا مَعْرُوفٌ ، والقولُ فيه يسيرٌ » - الاعتماد ، ص 216 وجه .

(57) انظر مثلا حديثه عن منافع « السوسن » (ص ص 151 و - 152 و) و« السقمونيا » (ص ص 178 و - 179 و) ، و« الغــار » (ص ص 181 و - 182 و) ، و« الكــرفس » (ص ص 199 ظ - 201 و) و« اليتوعات » ، (ص ص 208 و - 209 و) .

مازال قائما ، وكلّ نَبْتٍ يمكن أن يُسَمّى شَجَرًا وحشيشا في نفْس الوقت .
ونورد من هذا الخَلْط عند ابن الجزّار مثاليْن : أولهما قولُه عن « الأسْطُوخُودُوس » : « إنَّه حشيشة ذاتُ ورق وقُضْبان تَعْلُو على الأرض ذراعيْن وأكثر وأقلّ ، وهي شجرة تشبه شجرةَ الاكليل » (58) ، وثانِيهما قولُه عن « الشّيْلَمِ » : « وشجَرتُه حشيشة تعْلُو على الأرض الذراعَ وأكثرَ وأقلَّ » (59) . ثم انّ التصنيفَ النباتيّ قد بقي عندَهم على ماكان عليه عند ديوسقريديس من قبلهم فلم ينتبهُوا ـ مِثْلَهُ ـ الى تصنيف النباتات حسب فصائِلها (Familles) ، بل بقيت عندهم مُصَنَّفَةً حسب أنواعها (Espèces) وضروبها (Variétés) . على أنّهم قد تمثَّلُوا في الحقيقة هذا النوعَ الأخيرَ من التصنيف تمثُّلاً واضحا وإنْ لم يَخْلُ عندهم من التشْوِيشِ والاضطراب .
وأنواعُ التصنيف حسب الضُّروبِ التي يُقدّمُها لنا ابن الجزّار في كتاب « الاعتماد » تبلغ التسعَةَ : وهي التصنيفُ حسبَ اللّوْن ، كَأَنْ يكُونَ من النبات أحمَرُ وأبيَضُ (60) ، وحسب لون النوّار ، كَأَنْ يكُونَ من النبات أصفَرُ النوّار وبنفسجِيُّه وأبيضُهُ (61) ، وحسب هيْئَة النبات ، كَأَنْ يكُونَ من النبات طويلٌ ومُدَوَّرٌ (62) ، وحسب هيئة الورق أو الحبّ أو الأغصان ، كأنْ يكونَ من النبات كبيرُ الحبّ ، وصغيرُه (63) ، أو كبيرُ الورق صغيرُ الأغصان ، وكبيرُ الورق والأغصان (64) ؛ وحسب حَجْم النبات ، كأنْ

(58) ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص 129 ظ .
(59) نفس المصدر ، ص 202 و .
(60) انظر مثلا : « الاشقيل » ، ص 162 و ، و« الحرف » ، ص 204 و .
(61) مثل « الخيري » ، ص ص 150 و ـ 150 ظ .
(62) مثل « الزراوند » ، ص 144 و .
(63) مثل « الأبهل » ، ص 174 و .
(64) مثل « الخطمي » ، ص 163 و .

يكونَ منه كبيرٌ وصغيرٌ (65) ؛ وحسب المَنْبَتِ ، كأنْ يكونَ من النبات برّي وبستانيٌّ (66) ، أو برّيّ وبستانيّ وجبليّ (67) ، أو بستانيّ وجبليّ ومائيّ (68) ؛ وحسب زمن ظهور النبات ، كأنْ يكونَ منه صيفيّ وشتويّ (69) ، وحسب المنطقة الجغرافية التي يكثر فيها ومنها يُسْتَجْلَبُ ، كأنْ يكونَ منه هنديّ وحبشيّ (70) ؛ وحسب « جنس » النبات ، حسب التذكير والتأنيث ، فيكونُ منه الذكَرُ والأنثى (71) .

لقد أخذَ ابن الجزار هذه الأنواع من التصنيف عن ديوسقريديس ثم عن اسحاق بن عمران . لكنه لم يَحْفَلْ في الغالب بالبحْث عن ضروب أخرى من النباتات التي تحدّث عنها ، بل إنّه على عكْسِ ذلك كان في أحيان كثيرة يلْجَأ إلى حذْفِ ضروب نباتية ذكِرَتْ قبلهُ معْتَبِرًا الحديثَ عنها غير مُجْدٍ ، إما لأنها مجهولة عند العرب ، أو لأنّه هو ذاتُه يجهَلُها . ومن أهمّ الأمثلة على هذا المنْحَى عند ابن الجزّار نباتُ « اليتوع » الذي ذكر له ديوسقريديس سبْعَةَ ضُرُوبٍ (72) وفصَّلَ الحديثَ عنها ، ولم يذكر له ابن الجزّار إلّا الضربيْن الأول والثاني فقط عند ديوسقريديس ، أي الذكَرَ والأنثَى (73) . ولا شكّ أن

(65) مثل « لسان الحمل » ، ص 142 ظ ، و« الخروع » ، ص 159 و ، و« القنطوريون » ، ص 163 و ، و« حيّ العالَم » ، ص 189 و .

(66) مثل « السوسن » ، ص ص 151 و - 151 ظ ، و« النمّام » ص 153 و ، و« الرازيانج » ، ص 166 ظ ، و« السذاب » ، ص 204 و .

(67) مثل « السعتر » ، ص 104 ظ ، ويضيف اليها صنفا رابعا هو « السَّعْتَرُ الكرماني » .

(68) مثل « الكرفس » ، ص ص 199 ظ - 200 و ، والبستاني منه صنفان ، ثانيهما أرق وأصغر من الأوّل .

(69) مثل « الهندباء »ص 136 ظ .

(70) مثل « الأبنوس » ص 167 و .

(71) مثل « اليتوع » ، ص 208 و- 210 و .

(72) ديوسقريديس : المقالات الخمس ، ص ص 361 - 364 .

(73) ابن الجزّار : كتاب الاعتماد ، ص ص 208 و - 210 و .

سبب هذا الاهتمام الضئيل بالنبات في حدّ ذاته عند ابن الجزّار هو كونُه طبيبًا وصيدلانيًّا تهمّه من النبات منافعُه العملية العلاجيّة ، وليس عالَم نبات يَسْتَهْوِيه البحْثُ في خصَائص النبات العلميّة المحْض .

ولم يشذّ عن ابن الجزار في الحقيقة الأطباءُ والصيادلةُ اللاحقون له طيلةَ القرنيْن الرابع والخامس الهجريّيْن ، في اتباع هذا المنْحَى . على أننا نريد أنْ لا نغْمِطَ هؤلاء حقّهُم في تحقيق بعض التقدّم في دراسة النباتات الطبيّة . إلا أنّ ذلك التقدّم لو يتجاوَزْ في نظرنا اكتشافَ بعض النباتات الجديدة ـ وخاصّة في البيئة الأندلسيّة ـ التي أضيفَتْ إلى الرصيد القديم . أمّا البحثُ فيها فلم يخرج عن نطاق الاهتمام بالمنافع الطبيّة . وقد ظلّ هذا المنحى سائدا حتّى النِصْفِ الأوّل من القرن السادس الذي شهد ظهور كتاب جليل بحقّ في تاريخ « النباتات الطبيّة » عند العرب ، ونعني به كتاب « الأدْوية المفردة » لأبي جعفر أحمد بن محمّد الغافقي (ت . 560 هـ / 1165 م) .

إنّ المطّلع على القسْم المتبقّي من هذا الكتاب (74) يتبينّ لمؤلفه ميزَةً لا نعرف أنّ أحدًا من الأطباء والصيادلة العرب السابقين له قد توفّرت له ، وهي

(74) ـ لم يبق ـ حسب علمنا ـ من أصل الكتاب إلاّ النصفُ الأوّل ، من حرف الألف حتى نهاية حرف الكاف حسب الترتيب الأبجدي ، وَيُوجَدُ لديْنا منه صورتان شمسيّتان لمخطوطتيْ الخزانة العامّة بالرباط (رقم ق 155) ومكتبه أسلر في مونريال بكندا (رقم 7508) . والمخطوطة الأولى تَنْتَهِي بنهاية حرف الزاي والثانية هي التي تنتهي بنهاية حرف الكاف . وقد وصفْنَا هاتَيْن المخطوطتَيْن وحقّقنا منها مقدّمة الكتاب ونماذجَ من شروح باب الألف في بحثنا « أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب الأدوية المفردة ، دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته ، ونماذج من شروحه » في مجلة معهد المحظوطات العربيّة ، 30 / 1 (1986) ، ص ص 157 ـ 210 . ويوجد للكتاب أيضا مختصر كامل وضعه أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري (ت . 684 / 1286 م) ، وقد حقّق منه ماكس مَايِرْهُوف وجورج صُبْحِي وترجمَا إلى الانقليزية الحروف الستّة الأولى من الألف حتّى نهاية حرف الواو : The Abriged version of «the book of simple drugs» of Al - Ghafiqi, translated and published by Max Meyerhof and G.P. Sobhy, Ist ed, Cairo, 1932 - 1940 (4 vol.) .

كونُه نباتيّا وعشّابا ، إضافة إلى كونه طبيبا وصيدلانيّا . وقد نتج عن تلك الميزة عنده تفوّقٌ ظاهر على سابقيه من العلماء ، وخاصّة في معرفة المادّة النباتية القديمة ، والبحْثِ عن النباتات الجَدِيدَةِ والكشْفِ عنها ، والاهتمام في دراسة النباتات بالخصائص العلميّة المحْض أكثر من الاهتمام بالمنافع العلاجيّة . ويُبْرِزُ الجانبَ الأوّلَ عندَهُ نقْدُه الشديدُ للأطباء والصيادلة السابقين له ، لعدم تحرّيهم ولتقليدِ بعضِهم البعْض (75) ، ثم إلمامُه الدقيق بالمادّة النباتية في كتاب « المقالات الخمس » لديوسقريديس ، وقد مكّنه ذلك من إدْراج معظمها في كتابه والكشْف عن الكثير من أسماء النباتات التي بقيت مجهولة في ترجمة الكتاب العربيّة (76) . ويُظْهِرُ الجانبَ الثاني عندَه إضافتُه نباتاتٍ جديدةً أو ضروبًا جديدةً من نباتات كانت معروفة من قبلُ ، وقد وقف على ذلك جميعا في بلاد

---

(75) يقول الغافقي في ذلك : « ومَنْ نظر في كتُبهم وَجَدَ فيها من الاختلاف ما لا مَزِيدَ عليه حتى يتحيَّر ولا يعْرِفَ الحقّ من الباطل . وترى أكثرهم مُتّبعين بعضَهُم مقلّدين في غلطهم لأقدمهم ، إذا غلط واحِدٌ منهم رأيت جَمَاعَةً تتّبع غلطَه وتخْطِيء بخطئه . وهذا دليلٌ على أنّهم لم يكتبوا ما كتبوه في كتبهم ببَحْث وطلَب ولكن انتسخَ بعضُهم مِمّن تَقَدَّمَهُ من كتابه نَسْخًا ، فما أخطأ فيه تابعَه على خطئه وما أصاب وَافَقَ فيه معه ، فليس ينبغي أن يُلاَمَ أحدُهم إن أخطأ ولا يُحْمدَ إن أصاب . بل ينبغي أن يُلاَمَ الكلّ منهم لَوْمًا واحدا على توانيهم في البحْث وقلّة فحْصهم على الحقائق (. . .) ومنهم مَن غلط في الجَمْع بين الأقاويل كما فعل ابن وَافِدٍ حيث يجمع بين كلام ديسقوريدوس في دواء ويُضيفُهُ إلى كلام جالينوس في دواء آخرَ وهو يظن أنّهما واحد . وهذا إلى ما حرّف من كلام جالينوس وأفسدَه وأخرَجَه عن معناه وأساء العبارة عنْه وصَحّف عليْه ممّا يطول ذِكْرُه . ومنهم من يكذب كما فعل ابن سينا في مواضع كثيرة من أدْويته حيث يَحْكي عن ديسْقوريدوس وعن جالينوس ما لم يَقُولاَه . وبالجملة مَا مِنْ أحد تكلّم في أحد هذيْن الغرضيْن المذكوريْن في صدر هذا الْكتاب إلاّ وقد غلط الغَلَط الفاحِشَ ، من الرّازي الذي كان أوّلَهُم الى زماننا هذا » ـ الأدوية المفردة ، ص ص 2 ـ 3 (من مخطوطة الرباط) .

(76) قسّم الغافقي كلّ باب من أبواب كتابه إلى قسميْن : الأول علميّ يذكر فيه الأدويةَ ومنافعَها ، والثاني لُغويّ تفسيريّ يشرح فيه الأسماءَ الواردة على ذلك الحَرْف في متن كتابه . وأغلب الأسماء المفسّرة من اليونانية ، فالعددُ الجمليّ للمصطلحات المفسّرة في الأقسام التفسيرية من أبواب الكتاب الستّة الأولى (أ ـ و) يبلغ 1488 منها 665 مصطلح يونانيّ . أما البقية فمصطلحات عربيّة وفارسيّة وهندية ولاتينية .

الأندلس (77) . والنباتات التي أضافها في أبواب الكتاب السبعة الأولى (أ ـ ز) أحد عشر نباتًا ، هي « الامليلس » (78) و« أذْنُ الأرنب » (79) و« الأطـرمـالَـة » (80) و« الانجبـار » (81) و« اليُـربشَـانَـة » (82) و« البَلَخْتَة » (83) و« البِشْنَة » (84) و« البَدد » (85) و« البرْبِينَة » (86) و« الهُذَيْلِيَّة » (87) و« الوَطْم » (88) . وأما الضروب الجديدة التي أضافها في تلك الأبواب نفسها من كتابه فسبْعَة : ثلاثة منها للأسارون (89) واثنان للأمْصُوخ (90) واثنان للأشْنَان (91) . ويدلّ على المظهر الثالث عنده احتفالُه الكبير بوصْف النباتات ـ التي أضافها خاصّة ـ وصفًا دقيقا مركّزا على الملاحظة العلميّة المحْض واهمالُه الظاهرُ منافعَ النبات العلاجية التي لاَ يشير

(77) أشار إلى ذلك في مقدّمة كتابه بقوله : « وأَلْحَقْتُ على ذلك أيضا (أي الأدوية التي تحدّث عنها سابقوه) بعضَ الحشائش الموجودة عندنا التي يستعملها أهل بلادنا ممّا لم يذكرها أحد ممّن تقدّمَنا » ـ الأدوية المفردة ، ص 4 .

(78) الغافقي : الأدوية المفردة ، ص 60 .

(79) نفس المصدر ، ص 64 . .

(80) نفس المصدر ، ص 64 .

(81) نفس المصدر ، ص 67 .

(82) نفس المصدر ، ص 155 ، وقد ذكره ضمن حديثه عن « البهمن » .

(83) نفس المصدر ، ص 186 .

(84) نفس المصدر ، ص 186 .

(85) نفس المصدر ، ص 187 .

(86) نفس المصدر ، ص 187 .

(87) نفس المصدر ، ص 310 .

(88) نفس المصدر ، ص 324 .

(89) نفس المصدر ، ص 8 .

(90) نفس المصدر ، ص 63 .

(91) نفس المصدر ، ص 83 .

إليها إلا لِمَامًا في بعض الأحيان (92) او يُهْمِلُها إهمالا كليّا في أحيان أخرى(93) . إلا أن الغافقي ـ رغم أهميّة إسهامه في التقدّم بالبحث النباتيّ عند العرب ـ لم يكن بمَنْجَاةٍ من الخطإ (94) ولم يبلغ مستوى عَالِمٍ آخر لاَحِقٍ له ، هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار .

لقد شغل الطبَّ والنباتُ ابنَ البيطار (ت . 646 هـ / 1248 م) لكنّ النبات كان عليه أَغْلَبَ حتى نُسِبَ إليه فسُمِّيَ « النباتيّ » (95) و« العشّاب » (96) . وابن البيطار يستحقّ في الحقيقة هاتيْن الصّفتيْن عن جدارة لأننا لا نعرف عالما آخر ـ عدا أستاذِه أبي العبّاس النباتي ـ قد خَصَّ النباتَ بمثل ما خصّه هو به من العناية والبحث فطلبه في مظانّه وارتحل من أجله لإحكام معرفته به . وقد ابتدأ اهتمامُ ابن البيطار بالنبات منذ شبابه الأوّل فعشّب في بلاد الأندلس وتعرّف على محيطها الطبيعي النباتي وخاصّة صحبة

---

(92) انظر مثلا حديثه عن « الأمليلس » و« وأذن الأرنب » و« الأطرمالة » و« البلختة » و« البشنة » و« البدد » و« البربينة » ، وهذا مِثالٌ من مادة أطرمالة » : « هو نبات له سَاقٌ تعلو نحْو الذراع ، ليس عليها شِعَبٌ ، وله ورق في أربعة صفوف متوازية ، والورقُ يُشْبِهُ ورق الشهدانج إلاّ أنّه أصغَرُ مِنْهُ بِكَثير وله سُنْبلَة نحو شبر منظومة مرصّفة بِغُلُفٍ ملتصقة بعضُها فوق بعْض مرتفعة والغلف مدوّرة مفتوحة الأفواه في شكل غلف البندق التي يكون فيها البندق إلاّ أنها أصغر بكثير داخلها ثمر كالبندق أيضا في شكله وهو قَدْر الحمّص في دَاخله بزر دقيق جدّا أحمر إلى السواد وعلى أعلى النبات لُزُوجَةٌ تدْبَق كالعسل وله زهْر أبيضُ دقيق وربّما كان أصفَر ونباتُه في الأرض الجدبة والقفر . وبَزْرُ هذا النبات يُكْتَحَلُ به فينفع من الجرب والسّلاق ومن ابتداء الرمد البارد » ـ الأدوية المفردة ، ص ص 64 ـ 65 .

(93) انظر مثلا حديثَه عن الصنفين الأوّل والثالث من الأسارون ، والصنف الثاني من الأشنان .

(94) قد الف أبو العبّاس النباتي كتابا في نقده سمّاه « التنبيه على أغلاط الغافقي » ، ذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ، 513/1 ، وابن الخطيب في الاحاطة ، 212/1 ، وانتقده ابن البيطار في مواضع كثيرة من كتابه « الجامع » ، انظر مثلا : 40/2 ، 77/2 ، 117/3 ، 173/3 ، و75/4 .

(95) بذلك سمّاه ابن أبي أصيبعة في عيُون الأنباء ، 133/2 ، وبذلك سُمِّي في بداية كتابيْهِ « التفسير » ، ص 1 ظ ، و« الإبانة والإعلام » ، ص 1 ظ .

(96) بذلك سمّي في بداية كتابه « الجامع » ، 1/1 .

أستاذه أبي العباس أحمد بن محمد النباتي ، ثم غادر الأندلسَ في رحلة علميّة نباتية طويلة لم يعد بعدها إلى الأندلس كان يقيم أثناءَها في كلّ بلد يحلّ به وينصرف إلى دراسة نباتاته وأعشابه . والبلدانُ التي مرّ بها وأقام فيها هي - تباعًا - المغرب الأقصى والمغرب الأوسط (الجزائر) وافريقية (تونس) وطرابلس الغرب (ليبيا) ثم بلاد اليونان التي أخذ إليها طريق البحر من برقة ، ثم تركيا فبلاد فارس والعراق فبلاد الشّام والجزيرة العربيّة ومصر حيث انتهى به الترحال وعُيِّنَ رئيسا على سَائر العشّابِين والصيادلة . ولم يتوقّف في هذه المدّة عن التعشيب ، فقد كان ينتقل بين القاهرة ودمشق للغرض نفسه ولأغراض أخْرى ، وكان له تلاميذُ يصطحبونه في التعشيب منهم ابن أبي أصبيعة الذي قال إنه شاهد « معه في ظاهر دمشق كثيرا منَ النبات في مواضعه » (97) . وقد جعل هذا الاهتمامُ البالغُ بالنبات وهذا البحث الدَّؤوبُ عنه من ابن البيطار « أوْحد زمانه وعَلاَّمةَ وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعْتِ أسمَائه على اختلافها وتَنَوُّعِهَا » كما يقول ابن أبي أصيبعَةَ (98) ، بل لعلّنا لا نبالغ إذَا قُلْنَا إنّ ابن البيطار كان شَيْخَ علماء النبات العرب القُدَامَى وأعلمَهُم على الإطلاق بالنباتات وأحوالها ، رغم أنّ اهتمامَهُ بها في كتاباته كان مُوَظّفا لِغايات صيدليَّة وطبيّة وليس للبَحْثِ في النبات في حدّ ذاته .

وَيَتَبَيَّنُ صِحّةَ ما ذكرْنا كلُّ من اطَّلع على أربعةٍ من كُتُب ابن البيطار ، هي « الجامع لِمفْردات الأدْوية والأغذية » - وهو أهمّها - و « الـمُغْني في الأدوية المفردة » - وقد اطّلعنا على الجُزْءِ الثاني منه فقط - و « تفسيرُ كتاب دياسقوريدوس » وكتاب « الإبانةُ والاعلاَمُ بما في المنهاج من الخَلَلِ

(97) ابن أبي أصيبعة : العيون ، 133/2 .
(98) نفس المصدر ، 133/2 .

والأوهام » . والمطّلع على هذه الكتب يخرج بثلاثة استنتاجات أساسيّة تبيّن أهميّة إسْهام ابن البيطار في تطوير المباحث العربيّة في علم النبات .

وأوّلها اطلاعُه الواسع المُعَمَّقُ على ما كتبه سابقوه ومعاصرُوه ـ من أعاجم وعرب ـ في النبات ، وهو لم يطّلع على ما كتبه أصحابُ صناعته فقط من أطباء وصيادلة وعلماء طبيعَةٍ ، بل على ما كتبه علماءُ اللغة أيضا ، وقد بلغ عدَدُ العلماء الذين اعتمدَهُم في كتاب « الجامع » مثلا حواليْ مائة وخمسين عالِمًا من أُمَمٍ مختلفة . وقد غربل ما كتبه أُولَئِك العلماء ونَخَلَهُ وسجّل منه في كتابه ما صحّ عنده ـ كما يقولُ ـ « بالمشاهدة والنظر » وثَبَتَ عندَه « بالخِبرة لا بالخَبَر » (99) . وما يستَرْعِي الانتباهَ عند النظر في هذه الظاهرة هو اتقانُ ابن البيطار الدّرايةَ بالنباتات التي ذكرها ديوسقريديس في مقالاته الخمْس ، ويُظْهِرُ تِلْك الدّرايةَ عنده أمران : هما استيعابُه المادّةَ النباتيّة الواردَةَ في مقالات ديوسقريديس استيعابًا كلّيا في كتابه « الجامع » ، وافرادُه كتابًا مُسْتَقِلاّ لتفسيرها وكشْف قناع العُجْمَةِ عنها . ويمكن لنا القولُ ـ انطلاقا ممّا ذكرنا ـ أن معارفَ العَرب والعجم في النبات ـ وخاصّة في النَّباتَاتِ الطبيّة ـ قد بلغت عند ابن البيطار في القرن السابع الهجريّ حَدّا أقْصَى من « الهَضْم » والتَّمَثُّلِ العلمِيَّيْن .

وثانيها ـ وهو متّصل بالأوّل ـ هو معرفتُه الفائِقَةُ بدقائق أعيان النبات وأحْواله وخصائصه . وأهمّ ما يُعَبّر عن ذلك عنده نَقْدُه العِلميّ المنهجيُّ الدقيقُ لأخطاءِ العُلَماءِ العرَب الذين أخذ عَنْهُم والتراجمةِ الذين نقلوا كُتُبَ الطبّ الأعجمية إلى العربيّة . ومن العلماء الذين انتقَدهم وأصلح أخطاءهم

(99) ابن البيطار : الجامع ، 3/1 .

حنين بن اسحاق (100) واصطفن بن بسيل (101) واسحاق بن عمران (102) والرازي (103) واسحاق بن سليمان الأسْرائيلي (104) وأحمد بن الجَزّار (105) وابن جلجل (106) وابن سمجون (107) وابن سينا (108) وابن وافد (109) والشريف الإدريسي (110) والغَافِقيّ (111) . والعالم الذي نالَ منه النصيبَ الأوفرَ من النقد هو ابنُ جَزْلَةَ ، فقد انتقدَه في مواضع عديدة من كتاب « الجامع » (112) وخصّهُ بكتاب مستقلٍّ هو « الإبانـةُ والاعلام بما في المِنْهاج من الخلل والأوْهام » (113) . والانتقاداتُ التي وجّهَها ابنُ البيطار للعلماء السّابقين له مُهِمّة جدّا لأنها دالّة على مدى قُدْرَتِهِ على التّمْييزِ الصحيح بينْ أصناف النبات وأنواعِه وفَصَائِله . ونكتفي بالإشارة من ذلك إلى ثلاثة أمثِلَة ممّا خلَطَ فيه السّابقون وأزَالَ هو اللّبسَ عنه ، أولُها تَمْيِيزُهُ بينْ الإذْخِر والأسَلِ وقد خَلَطَ

(100) نفس المصدر ، 26/1 ، 40/2 ، 45/2 ، 13/3 ، 86/4 ، 105/4 .
(101) نفس المصدر ، 173/1 .
(102) نفس المصدر ، 144/3 ، 201/4 .
(103) نفس المصدر ، 16/1 ، 40/2 . 82/4 .
(104) نفس المصدر ، 168/1 .
(105) نفس المصدر ، 144/3 ، 201/4 .
(106) نفس المصدر ، 20/1 ، 49/1 ، 173/3 .
(107) نفس المصدر ، 40/2 .
(108) نفس المصدر ، 16/1 ، 143/1 ، 40/2 .
(109) نفس المصدر ، 91/1 ، 148/1 ، 40/2 ، 45/2 .
(110) نفس المصدر ، 51/1 ، 92/1 .
(111) راجع التعليق 94 .
(112) انظر في الجامع : 16/1 ، 143/1 ، 40/2 ، 68/3 ، 172/4 .
(113) على صفحة هذا الكتاب الأُولَى عنوان آخر أعمّ هو « الإبانة والإعلام بما في كُتُبِ المفردات من الأغاليط والأوهام » ، ولكنّ التّسمية الأولى هي الصَّحيحة لأنها مذكورة في الصفحة الأخيرة من الكتاب ثم لأن ابن البَيْطار نفسَه قد ذكرَهُ بهذا الاسم في مادة « حندقُوقَى برّي » في كتاب « الجامع » ، 40/2 ؛ و« المنهاج » هو « منهاج البيان فيما يستَعْمِلُهُ الانسان » .

بينها الرازي وابْن سينا وابن جَزْلة (114) ، وثانيها تمييزُه بين أصناف « لُوطُوس » الثلاثة وهي الحندقوقَى البرّي والحندقوقَى البستاني والبشنين ، وقد خلط بَيْنَهَا حنين بن اسحاق ثم تواصل الخلط بعده حتى عصر ابن البيطار (115) ، وثالثها تمييزُه بين الطُّبَّاقِ والغَافَث ، وقد خلط بينهما أطباءُ المشرق والمغرب على السّواء حتى عَصْر ابْن البيطار أيضا (116) . وابن البيطار يلحّ على ضرورة التمييز بين أنواع النبات وأصنافه حتى لا يُعْطَى نباتٌ خصائص نبات آخر ، ولا يقعَ الطّبِيبُ في الزلل ويُوقِعَ من يأتي بعْدَه فيه ، وهو زَلَلٌ لا يُغْتَفَرُ في نظر ابن البيطار (177) .

والاستنتاج الثالث ـ وهو الأهمّ ـ هو إضافة ابن البيطار نباتاتٍ جديدةً من محض اكتشافه إلى النباتات التي عرفها العرب من قبلُ سواء عن طريق الترجمات أو نتيجة التجارب . وإضافاته صنفان : أولهما تمثّله النباتاتُ الجديدة جِدَّةً كلّيّة باعتبارها نباتاتٍ مستقلّة ، وثانيهما تمثّله أصناف جديدة لنباتات قد عُرِفَتْ قبلَه . أما النباتات الجديدة التي أضافها فعَدَدُها عشرة ، هي آاطريلال (118) وأرْجَان (119) وبُوقِشْرَم (120) وزَلْمْ (121) وشُشْرُنْب (122) وصُفَيْراء (123) وعَاقَرقَرْحَا (الحقيقيّة) (124)

(114) انظر « الجامع » ، 16/1 و26/1 ، و« الإبانة » ، ص ص 4 ظ ـ 5و .

(115) الجامع ، 40/2 و116/4 ، والإبانة ، ص ص 26 ظ ـ 29 ظ .

(116) الجامع ، 97/3 و144/3 والإبانة ، ص ص 57 ظ ـ 58 ظ .

(117) يقول في ذلك : « واعْلَمْ أنّ العَالِمَ أوْلَى الناس بالتثبُّتِ والاحتياط لنفسه ولغيره ، وقد قالت الحكماء : لا تُقَالُ زلّة العَالِمِ لأنه يُزِلُّ بِزَلَّتِهِ العَالَم » ـ الجامع ، 40/2 .

(118) ابن البيطار : الجامع ، 4/1 .

(119) نفس المصدر ، 22/1 و112/4 .

(120) نفس المصدر ، 127/1 .

(121) نفس المصدر ، 166/2 .

(122) نفس المصدر ، 62/3 .

(123) نفس المصدر ، 85/3 .

(124) نفس المصدر ، 115/3 .

وكَبْسُون (125) وكُتَيْلَة (126) ومُسْتَعْجِلَة (127) . وأما الأصناف النباتية الجديدة التي أضافها فتبلغ سبعة عشر صنفا : صِنْفَان للاقحوان (128) ، وصنف للانْتُلَة هو الأَنْتُلَة البيضاءُ (129) ، وصنفان للبشنين (130) ، وصنف للبلّوط هو البهش (131) ، وَصِنْفٌ - غير شائك - للحرشف هو الخرّيع (132) ، وصنف للزقّوم (133) وصنف لشجرة مريم هو العبْهَر (134) وصنف للقستوس هو الشَّقْواصُ (135) وصنف للغافث هو الغافث العراقي (136) وصنف للقُنَّب هو القُنَّبُ الهنديّ (137) وصنفان للمخلّصة (138) وصنفان للمشكطرا مشير (139) وصنف للبيش هو الطوارهْ (140) . والجدير بالملاحظة عند النظر في هذه النباتات أو الاصناف النباتية الجديدة جميعها هو غَلَبَةُ الحِلْيَةِ النباتية المحْض على المنافع الطبيّة العلاجية . فالهمّ الأوّل عنده هو التعريف بالنبات تعريفا علميًا يدقّق فيه في

(125) نفس المصدر ، 50/4 .

(126) نفس المصدر ، 52/4 .

(127) نفس المصدر ، 157/4 .

(128) نفس المصدر ، 48/1 .

(129) نفس المصدر ، 66/1 .

(130) نفس المصدر ، 96/1 .

(131) نفس المصدر ، 122/1 ، وقد ذكر البهش قبلَهُ أبو حنيفة (كتاب النبات ، 47/1 ، المادة 73) لكن البهش عند أبي حنيفة هو « المقْلُ مادام رَطْبًا » ، وشَجَرُهُ الدَّوْمُ .

(132) ابن البيطار : الجامع ، 57/2 .

(133) نفس المصدر ، 166/2 .

(134) نفس المصدر ، 55/3 و116/3 .

(135) نفس المصدر ، 66/3 .

(136) نفس المصدر ، 144/3 .

(137) نفس المصدر ، 39/4 .

(138) نفس المصدر ، 142/4 .

(139) نفس المصدر ، 157/4 .

(140) نفس المصدر ، 105/3 .

الغالب وصْفَ معظم أجزاء النبات وخصائصه المخصوصة به من أصْلٍ وجمّة وساق وعيدان وقضبان وأوراق وزهر وثمر وحجم وامتداد ولون وطعم وزمن وموضع . الا أن هذا التعريف عنده غير خاضع في الحقيقة لمنهج دقيق مضبوط لأنّه قد يصف النبات من الأعلى الى الأسفل أو من الأسفل الى الأعلى ، كما أنه قد يبتدىء بوصف أجزاء النبات لينتهيَ بوصف خواصّه ، أو يبدأ بوصف الخواصّ ليتدرّج في وصف الأجزاء ، وقد يمزج في أحيان أخرى بين الأجزاء والخواصّ فتردُ متداخلةً . وابن البيطار لم يشذّ في هذا المنحى - في الحقيقة - عن الأطباء والصيادلة الذين عُنُوا قبلَة بالنباتات الطبيّة ، فهو مثلهم لم يُخْلِص العِنَايَة بالنبات لذاتِه بل لغرض أعمّ هو الطبّ والصيدلة ، فنظر مثلهم الى النَّبَاتَاتِ باعتبارها أدويةً وأغذيةً ، لكن الذي ميّزه عنهم هو أنه لم يكتف بالنقل والاقتباس كما فعل معظمُهم بل بحث عن النباتَاتِ الطبيّة في مظانّها فوقف على أعيانها وأشخاصها في مواضعها فشخّصها وتحقّق من ماهياتها فكانت خبرتُه لذلك بالنبات أكبرَ وكان علمُه به أغزر وأوفى .

4 - مرْحَلَةُ الـمُلاَحَظَةِ العِلميّة الـمحْضِ :

قد رأينا أنّ الاهتمام بالنبات في المراحل السابقة كان موظّفا لأغراض ثانوية غير النبات في حدّ ذاته ، فلم تتكوّن لذلك مدرسة يمكن تسميتُها بمدرسة علم النبات العربيّة . وَلَمْ يُتَحْ لتلك المدرسة أن تَنْشأ إلا في النصف الأوّل من القرن السابع الهجريّ في الأندلس على يَدَيْ عالم فذّ لكنّه لا يزال مغمورا خاملَ الذكر هو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن مفرّج ابن الرُّوميَّة الاشبيلي (561 هـ / 1165 م - 637 هـ / 1239 م) الذي اشْتَهَرَ باسم أبِي العبّاس النباتي في كلّ المراجع التي تحدّثَتْ عنه لغلبة الاهتمام بالنبات عليه . ومن طرائف هذا العالم أنِ اجتمع عنده عِلْمان تميّز فيهما قلّ أن اجتمعَا عند غيره من

قبلُ : هما علمُ الحديثِ ـ حتى سُمّي بأبي العبّاس الحَافظ وأبي العبَّاس المُحَدِّث ـ وعلم النبات . وقد كان في الفقه ظاهريًا متعصّبا لمذهب أبي محمد علي بن حزم . ويبْدُو أنّ هذا الميلَ الى الأخذ بالظاهر قد غلب عليْه في مباحثه النباتيّة أيْضًا ، فتخلّص من طريقة الرواية والاسناد ـ وقد أجادَها في علم الحديث ـ والاعتمادِ على أقوال السّابقين لِيَخْلُصَ الى البحث الميدانيّ المحْض ، بحثًا عن النباتات الجديدة التي لم يقع عليها سابقوه ورغبةً في الكشف عن حقائق النباتات التي اشتبه أمرُها على سابقيه فتناقلَها بعضُهم عن بعض دون تَحْلِيَةٍ أو وصف علميّ دقيق . وقد حصلت له من ذلك البحث نتائج على غاية من الأهميّة لم يسبقه أحد اليها ، وهو ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : « ولم يزل باحثا عن حقائقه ـ أي النبات ـ كاشفا عن غوامضه حتى وقف منه على ما لَمْ يقف عليه غيرُه ممّن تقدّم في الامّة الاسلامية ، فصار أوحَدَ عصره في ذلك فردًا لا يُجَارِيه أحدٌ فيه بإجماع من أهل ذلك الشأن »(141).

أخذ أبو العبّاس علم النبات « عن أبيه وعن جدّه وكانا قدوة في العلم به » (142) ، ثم طاف بلاد الأندلس ـ شرقًا وغربا ـ للتعشيب . ثم أخذ طريق المشرق سنة 612 هـ / 1215 م بنيّة الحجّ ورواية الحديث ودراسة النبات . وقد كان مسلَكُه في هذه الرحلة بطيئا لأنّه كان ينصرف في كلّ بلد يحلّ به الى ملاقاة العلماء ـ علماء الحديث خاصّة ـ ودراسة النبات . ومشاهدَاتُه النباتيّة التي وصلتنا تثبت أنه قد أقام بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط وافريقية وطرابلس الغرب وبرقة ومصر ـ حيث استبقاه ملكها الأيوبيّ لكنه رفض ـ والحجاز ـ حيث أدّى فريضة الحجّ سنة 613 هـ / 1216 م ـ والعراق وبلاد الشام التي عرّج منها على صقلّية ثم عاد الى الأندلس سنة

---

(141) ابن عبد الملك : الذّيْل والتكملة ، 1/512 ـ 513 .

(142) نفس المصدر ، 1/512 .

615 هـ / 1218 م . وبعد عودته جمع مختلف مشاهداته النباتية أثناء رِحلته في كتاب سمّاه « الرحلة المشرقيّة » يبدو أنه رتّب مادّته على حروف المعجم (143) . والمؤسف حقّا أنّ هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق لنا منه إلاّ مائة وثلاث موادّ في كتاب ابن البيطار - تلميذ أبي العبّاس - « الجامِع لمفردات الأدوية والأغذية » (144) . والحقيقة أن سبْعًا وتسعين مادّة فقط من تلك الموادّ نباتية ، أما الموادّ الستّ الباقية ففي غير النبات (145) .

وعند النظر في هذه الموادّ النباتية المتبقّية من الكتاب نلاحظ أنّها جَمِيعها في الحقيقة جديدة ، ومظاهر الجدّة فيها أربعةٌ :

أوّلها طريقة التناول بالبحث والدرْس . ذلك ان ابا العباس هو أوّلُ من اعتنى اعتناءً حقيقيا بالوصف الظاهريّ والتحلية العلميّة الدقيقة للنباتات المدروسة . وهو يمعن في وَصْفِ أجزاء النبْتِ المتحدِّثِ عنه وذكرِ خصائصه المخصُوصَة به إمعَانًا يدلّ على اهتمامه النباتيّ المحض . فهو - عند الحديث عن النبْت الواحد - غالبا ما يحيط بوصف الأصول والجُمَّة والسّاق والعيدان والأغصان والقضبان والشوك والزغب والصمغ والرأس والورق والزهر والبزْرِ وذكر الشكل والحجم والطول أو العرض والامتداد واللون والطعم وموضع الانبات وزمانه . وذلك الوصف الدقيق ليس له من غاية إلا الإِخْبَارُ عن ماهية النبات المتحدَّث عنه من حيث هو نباتٌ فحسب ، وليس لغاية تعريف الناس

(143) المقريّ : نَفْعُ الطيب ، 596/2 ، وقد قال : « صَنَّفَ كتابا حَسَنًا كثير الفائدة في الحشائش ورتَّب فيه أسماءَها على حروف المعجم » . والملاحظ أنّ ابن الخطيب قد سَمَّى كتاب « الرحلة » في الإحاطة (212/1) « الرحلة النباتية » .

(144) قد أنجزنا بحثًا عن أبي العبّاس النباتي لا يزال مخْطُوطًا تحدّثنا فيهِ عن منزلته في تاريخ علم النبات عند العرب واستَخْرَجْنَا فيه الموادّ التي بقيت من كتاب « الرّحلة » في « جامع » ابن البيطار وحقّقْناها .

(145) هي موادّ « حجر السلوان » (الجامع ، 8/2) و« حجر اليُسْر » (12/2) و« حجر بَارِقي » (12/2) و« صدَف البواسير » (82/3) و« صوف البحْر » (91/3) و« قاوند » (3/4 - 4) .

بماهيته حتى يَحْسُنَ اختيارُه ويصحّ استعمالُه في الطبّ . فأبو العبّاس من هذه الناحية كان أوّل من أخضع دراسة النبات للملاحظة العلميّة المحْض المباشرة . على أنه في الحقيقة كثيرا ما يقع في هَنَة كانت غالبةً عند سابقيه ، هي الوصف بالتشبيه ، فيصف ورق نبات مّا ـ مثلا ـ أو زهره أو ثمره بتشبيهها ـ من حيث الخصائص خاصّة ـ بزهر نبات آخر أو ورقه أو ثمره . مثال ذلك قوله في وصف النبات المسمّى « أسرار » : « . . . وهو على قدْر ما صَغُرَ من شجر الرنْدِ ، وَوَرقُه وَزَهْرُهُ [كورقه] وزهْرِه ويُثمِر ثمرا على قدر البنْدُق كأنّه ما صَغُر من ثمر الخَوْخ ، أزْغَبُ الى الطول ما هو ، وفيه يسير بشاعة (. . .) ولهذه الشجرة صَمْغَةٌ لَدُنَةٌ فيها بعض شَبَهٍ بالكنْدر » (146) . يضاف إلى هذا أن أبا العبّاس لم يَخْلُصْ دائما من ذكر منافع النبات في إشارات تتخلّلُ أو تَعْقُبُ الحديث عن صفات النباتاتِ . إلا أنّ تلك الاشاراتِ عنده لا تتجاوز في أغلب الحالات الجمْلَةَ الواحدة أو الجملتيْنْ . وتلك المنافع عنده صنفان : قليلا ما تكون طبيّة وغالبا ما تكون اجتماعية مثل استعمال النبات في الطعام او الصباغة أو التزيين أو الغِرَاءِ . . . الخ . إلاّ أنّ هاتيْنْ الظاهرتيْنْ لا تُقلّلان من قيمة السبق الذي كان له في الاهتمام بالنبات في حدّ ذاته باعتباره عِلْمًا مستقلاّ غيرَ موظّف لغايات أخرى . وقد كان هذا الاهتمامُ عنده بالنَّبَات المحض متعمَّدا إذ كان بامكانه أن يوظّف دراسةَ النبات لغايات طبيّةٍ محْضٍ لأنه كان طبيبا مشهورا أيضا ، جيّد العلاج . وقد كان المستشرق الفرنسي لوسيان لكلرك (L. Leclerc) ـ مترجمُ ابن البيطار الى الفرنسيّة ـ قد تفطّن إلى هذا السبق منذ أواخر القرن الماضي ، فقالَ عنه : « لقد كان أبو العبّاس بين العرب عالمَ النبات الأحَقَّ بهذا الاسم . فقد كان العلماءُ قبلَه يعتمدون عادةً النقلَ والروايةَ ، وهو أوّلُ

(146) الجامع ، 33/1 .

من صرف حياتَه إلى دراسة النبات دراسة [ميدانيّة] مباشِرَةً فتجاوز نظرة السابقين الى النباتات باعتبارها مُجَرَّدَ مفردَاتٍ طبيّة . فابنُ جلجل كان قد كشف عن نباتات جديدة لم يذكُرْها ديوسقريديس ، لكن اعتمادَه في ذلك كان على الكتب . والغافقيّ والشريفُ الادريسي كانا قد أدْخَلا في قائمة النباتات الطبيّة عددا غير قليل من النباتات الجديدة . لكنّ همّهما لم يكن توسيعَ ميدان علم النبات المَحْض (. . .) . وباختصار فإنّ أبا العبّاس بين العرب لم يكن أوّل من عُنِيَ فَحَسْبُ بالملاحظة العلميّة المحض في ميدان النبات ، بل كان أخصبهم [اكتشافا] » (147) .

ومظهر الجدّة الثاني عند أبي العبّاس النباتيّ هو تَحْلِيَتُهُ لأوّل مرة نباتاتٍ قديمةً كانت معروفةً من قبل بأسمائها فقط أو كانت ماهياتُها وخصائصُها مثَارَ اشتباهٍ . فقد كان أبو العبّاس ذَا اطلاع واسع على ما أُلِّفَ قبلَه في النبات . وإذ كانت غايتُه نباتيّة محضًا فإنّه لم يهْتَمَّ بالنباتات المعروفة التي أصبحت لا تثير شبهة أو إشكالا ، ولم يُثْقِلْ كتابَه بالنُّقُولِ عن سابقيه مثل المؤلفين في الأدْوية المفرَدة ، بل سعى إلى الوقُوفِ على أعيان النبات بنفسه للتحقُّقِ من ماهياتها لوضع مُدَوّنةٍ في النبات يضيف فيها جديدًا . وقد أتاحت له تلك المعَايَنَةُ المباشِرَة التعرُّفَ على ماهيات نباتات كثيرة كانت من قبلُ منقُوصَةَ الحِلْيةِ أو مثَارًا للإشْكَالِ ، وقد بلغ عدد هذه النباتات عنده خمسين نباتا من جملة سبعة وتسْعين . وهذه النباتات تنقسم إلى ثلاثة أصناف : الأوّل ـ وهو الأقلّ عددًا ـ تمثّله نباتات مَغْربيّة ـ بربريّة بالخصوص ـ قد اكتشفها قبلَ القرن السابع بعض المؤلفين في الأدوية المفردة فتحدّثوا عن منافعها الطبيّة وأبقوا حِلْيَتَها العلميّة منقوصةً ، ومن هذه النباتات مثلا نَبَاتًا « آاكْثار » (148)

(147) Leclerc : Histoire de la médecine arabe, 2/246 .

(148) الجامع ، 1/5 .

و« أرْجِيقْنُـهْ » (149) ، وقد كـانا من اكتشـاف الشريف الادريسي (ت . 560 هـ / 1165 م) في القرن السّادس . والصنف الثاني تمثّله نباتات قديمَةٌ ـ وعددها حوالي العشرة ـ معظمُها قد ذُكِرَ في الكتب اليونانية وبعْضُها قد ذكر في كتب الأدْوية المفردة العربيّة ، ولكن الاهتمام بمنافعها قد جعل المؤلفين السّابقين يُقَصِّرُونَ في وصف ماهياتها . وقلّة عدد هذا الصنف تعود بدون شكّ إلى كوْن أبي العبّاس كان قد أفرد لشرح مفردات ديوسقريديسَ وجالينوس كتابا مستقلا سمّاه « شرح أدوية ديسقوريدوس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميهَا » (150) . ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « سعوط » (151) و« عشـرق » (152) و« غبيـراء » (153) و« قضّـاب مصـريّ » (154) و« ماميثا » (155) . وهذا المثال الأخير من أحسن الأمثلة للتدليل على نزعة أبي العبّاس في التحقيق وَرَغْبَتِه في إضافة الجديد . فلقد كانَ الأطبّاء والصيادلة في معرفتهم للمَامِيثا عَالَةً على ديوسقريديس ، فلم يصفُوها في كتبهم اتّكالاً على وصف هذا العالم اليوناني لها . ولكن الماميثا من النباتات التي تثير الاشتباه لموافقتها في ماهيتها موافقةً كبيرة نباتًا آخرَ هو الخشخاش السّاحليّ ، أي الخشخاش المعروف بالمقرّن ، وقد أدّى هذا التوافُقُ بين النباتَيْن إلى الخلط بينهما . وقد ناقش أبو العبّاس هذه المسألة نقاشا علميّا دقيقا نورد منه هذه الفقرة : « الفرْق الثابتُ الذي لا يَشْكُلُ ولا يُحْتَاجُ معه إلى فَرْقٍ آخر ـ وقد خَفِيَ على من مضى من المحْدَثِين ولم يعْلَمْه كثير من المتأخّرين ـ أن الخشخاشَ

(149) نفس المصدر ، 20/1 .

(150) ذكره ابن عبد الملك في الذّيل والتكملة ، 513/1 ، وابنُ الخطيب في الأحاطة ، 212/1 .

(151) الجامع ، 16/3 .

(152) نفس المصدر ، 123/3 .

(153) نفس المصدر ، 148/3 .

(154) نفس المصدر ، 23/4 .

(155) نفس المصدر ، 124/4 ـ 125 .

السّاحليّ فيه الحبَّةُ المنكّتة وغير المنكّتَةِ والماميثا المُحقّقة النَّابِتَةُ في البرّ مُسْتَأنِفَةُ الكَوْن في كُلّ سَنَةٍ وتَنْحَطِمُ عند انتهاء الصيف . والمُزْدَرَعُ من الخَشْخَاشِ السّاحليّ بالبساتين الـمُسَمَّى مَامِيثًا عند أهل اشبيلية فإنّ الذي يَنْبُتُ منه على الأصل تَنْحَطِمُ أغصَانُه وتَبْقَى أرومتُه منها في الـمُقْبِلِ (. .) . واعلَمْ أن الخَشْخَاشَ المقَرَّن والماميثا لاَ فَرْقَ بيْنَهُمَا في صورة الورق والزهْرِ والثمَر ولَوْن الأصْلِ من الصفرة التي فيها إلاّ ما انبأْتُك به أولاً وآخرًا من اختصاص الماميثا بالبراري والأرضِ الطيّبة واختصَاصِ الخَشْخَاشِ بالسواحِلِ البحْرِيَّة بِرَمْليّها وبَحْرِيِّها . وكذا قد اعلَمْتُكَ أنّ من الماميثا ما يكون في أسفل وَرَقِه نُكْتَةٌ دَكِنَةُ اللوْن ومنه ما لاَ نُكْتَةَ فيه وكذا من أنواع الخَشْخَاشِ ما يُشْبِهُه إلاّ أن زهر هذا أحمرُ وسِنْفَته قائمة فصار فيها خشونة بخلاف سِنْفَةِ الخَشْخَاشِ الـمُقَرَّنِ . والماميثا فإنّ زهر ثمرها مُعْوَجّ كالقُرُون »(156) .

والصنف الثالثُ من هذه النباتات نباتات عربية ـ وعدَدُها الأغلبُ ـ من جزيرة العرب خاصّة ، كان أبو حنيفة قد ذكرها في كتاب « النبات » لكنّه لم يَصِفْهَا ولم يُحَلِّهَا ، وقد اتّكَلَ المؤلفون في الأدْوية المفردة بَعْدَه عَلَيْه فاكتفوا في الغالب بالقليل الذي عنده . وهذا الصنف في الحقيقة على قَدْرٍ كبير من الأهمية لأنّ نباتَاتِه في معظمها تنتمي الى أرض الجزيرة العربيّة والى ساحل البحر الأحمر بالخصوص . ولَوْلاَ تعريفُ أبي العبّاس بتلك النباتات تعريفًا علميًّا دقيقا لبقيت في المؤلفات العربيّة مجهولةً مثل نباتات أخْرى كثيرة لم تصلنا الاّ في معاجم اللغة ومُتُونها . وقد جعل هذا المظهرُ المستشرقَ الفرنسيّ لسْيان لكلرك يُشِيدُ بقيمة كُشُوفِ أبي العبّاس ويعتبرها سَبْقًا مهمّا وتكملةً أساسية لمباحث العالم السويديّ بطرس فُرسكال ـ من القرن الثامن عشر ـ النباتية في أرض

(156) نفس المصدر ، 125/4 .

مصر والجزيرة (157) . ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « أيْهَقان » (158) و« بَكَا » (159) و« تنوم » (160) و« تمتم » (161) و« جثجاث » (162) و« حَدَق » (163) . . . الخ .

ومظهرُ الجِدَّة الثالثُ عند أبي العبّاس هو اضافتُه أصنافًا جديدةً لنباتات قديمة معروفة . وهذا المظهر يُعْتَبَر توسيعًا حقيقيا في ميدان علم النبات والمعارف السابقة فيه . وعدَدُ الاصناف الجديدة التي أضافَها سبْعَةَ عشَر ، هي الإشْراسُ وهو صنف من الخُنْثَى (164) والاكْرَارُ وهو الصنف الكبير غير المُثْمِر من الطُّرْنُشُولَى (165) والبَابُونَق وهو الصنف الصغير من البَابُونَج (166) والصنف الصقليّ من البِرْدِيّ (167) والربَلُ وهو صنف من البرنجاسَف (168) والصَّالْبِيَة وهو صِنْفٌ صغير من الناعمة - الألاَلسْفَاتُن - (169) والزيْزَفُون وهو الصنف الذكَر غير المُثْمِر من

(157) Lecture : Histoire de la médecine arabe, 2/247 ؛ وكتاب فرسكال المشار اليْهِ هو Flora Aegyptica, Hanniae 1775 .

(158) الجامع ، 72/1 .

(159) نفس المصدر ، 107/1 .

(160) نفس المصدر ، 141/1 .

(161) نفس المصدر ، 151/1 .

(162) نفس المصدر ، 159/1 .

(163) نفس المصدر ، 14/2 .

(164) نفس المصدر ، 38/1 .

(165) نفس المصدر ، 52/1 .

(166) نفس المصدر ، 73/1 .

(167) نفس المصدر ، 86/1 .

(168) نفس المصدر ، 135/2 .

(169) نفس المصدر ، 77/3 .

الغُبَيْرَاءِ (170)والغُبَارِية وهو صنف من مَسْبَلِين (Mespilus) اليونانيّ (171) وسبعة أصناف من القَرصعْنَة هي الأبيضُ الزهر والأخضَرُ والمستديرُ الوَرق والأزرقُ والأبيضُ والسّاحليُّ والمرّ (172) ، واللوفا وهو صنف من القوطولِيذُون (173) والمثْنان اللبنيّ ـ أوْ البَرْقيّ ، نسبة الى بَرْقَة ـ وهو صنف من المثنان النابت في مصر وبلاد الشام (174) .

وأما مظهر الجدّة الرابع عند أبي العبّاس فاضافتُه نباتاتٍ جديدةً اكتشفَها هو ولم تكن معروفة قبلَه ، وعدَدُها الجمليّ عشرون نباتا من جملة سبعَة وتسعين ، وهو عدد يُعْتَبر مُهِمًّا جدّا بالقياس الى عدد الموادّ المتبقية بين أيدينا من كتاب « الرحلة المشرقية » . وتلك النباتات العشرون موزعة على أماكن مختلفة من المواضع التي عشّب فيها أبو العبّاس ، اثنان منها أندلسيّان هما « بُطْرة » (175) و« عُدَيْسَة » (176) ، ونبات واحد رآه في المغرب الأقصى هو « أَقْشُرْوَا » (177) ، وخمسة نباتات رآها في افريقية هي « أكر البحر » (178) و« زُقُشْتَة » (179) و« قُزَّاح » (180) و« قُلُّجة » (181)

(170) نفس المصدر ، 148/3 .
(171) نفس المصدر ، 149/3 .
(172) نفس المصدر ، 12/4 .
(173) نفس المصدر ، 115/4 ـ 116 .
(174) نفس المصدر ، 140/4 .
(175) نفس المصدر ، 101/1 .
(176) نفس المصدر ، 118/3 .
(177) نفس المصدر ، 6/1 .
(178) نفس المصدر ، 52/1 .
(179) نفس المصدر ، 166/2 .
(180) نفس المصدر ، 17/4 ـ 18 .
(181) نفس المصدر ، 32/4 .

و« قَلَنْجُونَة » (182) ، وأربعة رآها في الحجاز ـ وخاصّة على ساحل البحر الأحمر ـ هي « اسرار » (183) و« شُورَة » (184) و« عِكْرِش » ـ وهو غير الذي ذكره أبو حنيفة ـ (185) و« عَلْقَم » ـ وهو أيضا غير النبات المعروف بهذا الاسم من قبلُ ـ (186) ، وخمسة مشتركة قد شاهدها في أكثر من موضع ، هي « بُلّان » وقد رآه في برقة وبيت المقدس (187) ، و« ذَنَبُ الخروف » ـ وهو نبات غير المعروف من قبلُ بهذا الاسم ـ ؛ وقد رآه في افريقية وبلاد الشام (188) و« شَشْتَرة » وقد رآه في الأندلس وبلاد المغرب (189) ، و« شُطَيْبَة » وقد شاهد نباته في الأندلس وافريقية (190) ، و« ليفيّة » وقد وقف عليه في مصر والحجاز (191) . وأما النباتات الثلاثة الباقية فإنه لم يصرّح بموضع معيّن شاهدها فيه ، وهي « شبرم آخر » (192) ، و« صَنِين » (193) ، و« غَلْقَى » (194) . والمظنون عندنا أنه شاهد الشبرم والغلقى في الحجاز ، ففي حديثه عنهما ما يوحي بذلك .

(182) نفس المصدر ، 32/4 .
(183) نفس المصدر ، 33/1 .
(184) نفس المصدر ، 73/3 ـ 74 .
(185) نفس المصدر ، 130/3 .
(186) نفس المصدر ، 134/3 .
(187) نفس المصدر ، 113/1 .
(188) نفس المصدر ، 126/2 .
(189) نفس المصدر ، 62/3 .
(190) نفس المصدر ، 62/3 .
(191) نفس المصدر ، 117/4 ـ 118 .
(192) نفس المصدر ، 52/3 .
(193) نفس المصدر ، 90/3 .
(194) نفس المصدر ، 151/3 .

تلك أهمّ المظاهر الجديدة في تجربة هذا العالم الطبيعيّ النباتية . ولو وصلنَا كتابه « الرحلة المشرقية » كاملا لأمكننا بدون شك تبيّن مظاهرَ جديدةٍ أخرى فيه . إلاّ أن هذه المظاهر الجديدةَ الأربعة كافيةٌ في نظرنا لتنزّل أبا العبّاس المنزلة الأولى بين العلماء الطبيعيّين العرب الذين اهتمّوا بالنبات وتجعلنا نعتبره صاحب مذهب ومدْرَسَة في تاريخ علم النبات عند العرب . إلاّ أنّ المذهبَ الذي ذهبه أبو العبّاس والمنهَجَ الذي سَنَّهُ في دراسة النبات قد تَوَقَّفَا بعْدَهُ ولم يكن لهما حظّ من الوجود ، إلاّ ما رأيناه عند تلْمِيذِه ابن البيطار وقد كان له معاصرا ، إلاّ أنّ عمل ابن البيطار كان نباتيّا طبيّا ولَيْس نَبَاتِيّا محضا . ولقد غلب بعد النصف الأوّل من القرن السابع مذهبُ التلميذ على مذهب الاستاذ فأقبلَ العلماء على كتاب ابن البيطار ـ « الجامع » ـ يلخّصونه ويختصرونه وينتخبون منه لغايات طبيّة علاجيّة ، ونُسيَ كتاب « الرحلة » لأبي العبّاس وأُهْمِل المنهجُ الجديدُ الذي أدخلَ لأوّل مرة في المباحث النباتيّة العربيَّة .

خـاتـمـة

تلك هي المراحل الأساسيّة التي مرّ بها علم النبات عند العرب . فقد بدأ الاهتمامُ بالنبات عند العرب في إطار لغويّ محض ثم في إطار التّماسّ بين اللغات والثقافات عن طريق الترجمة ثم في اطار الاهتمامات الطبيّة العلاجية . وقد تخلّل ذلك كلّه اهتمامٌ من نوع آخر في إطار المباحث الفلاحية ، لكنّ هذا الاهتمام أيضا لم يكن بعلم النبات المحْض بل لغرض آخرَ غيْرِه . ولم تُخْلَص العنايَةُ بالنبات المحْض إلاّ في النصف الأوّل من القرن السّابع الهجريّ في محاولة فريدة وتجربةٍ فذّة من المؤسف أنْ لم يكُنْ لها تواصُلٌ . وبعْدَ هذا العَرْض

الذي قدّمنا لمختلف تلك المراحل ليس لنا إلا أن نؤكّد ما كنّا ذكرناه في مقدّمة هذا البحْث : فالتجربة العربيّة في علم النبات تجربة رائدة ليس لها سابق أوْ مِثْلٌ في تاريخ علم النبات ، وهي تجربة متميّزة في التّراث العلميّ الانسانيّ سواءٌ من حيث عدَدُ العلماء الذين اهتمّوا بالنبات آو من حيث المذْهَبُ الذي ذهبُوه في دراستِهِ والمنهج الذي سلكوه في مباحثه . فالأممُ السابقَةُ تشارِكُهُم في الاهتمام به لأغراض طبّيّة وفلاحية ولكنّهم يمتازون على غيرهم باخلاصهم العنايةَ به لذاته إذْ جعلوا منه عِلْمًا مستقلاّ .

ولكن أينَ نحْنُ اليوم من التجربة النباتية العربيّة القديمة ومن التجربة العالميّة ؟ أوّل ما تجدر ملاحظَتُه هو أنه لا يوجد عالِمٌ عربيّ واحِدٌ اليومَ يمكن أن يُنْعَتَ بالنباتيّ مثلما نُعِتَ أبو العبّاس الاشبيلي أو تلميذُه ابن البيطار في القرن السّابع الهجريّ . وأبرز الدلائل على ذلك أنّ معظم الدراسات الأساسية التي وُضِعَتْ في وصف المحيط النباتي العربيّ ـ مشرقيِّه ومغربيِّه ـ كانت من عمل أعاجِمَ ، وبلغات غير العربيّة . وأولئك الأعاجم هم الذين اكتشفوا النباتَاتِ والأصناف النباتيَّة الجَديدة التي لم يعرفها العلماءُ العرب والعلماء السابقون لهم من قبْلُ . ثم انّ التراث العلميّ النباتي العربي القديم يكاد يكون اليوم في جملته مجْهُولا ، إذ لا يعرف الناس منه الا النزْرَ القليلَ ممّا وصلنَا في « جامع » ابن البيطار خاصّة . وأسباب ذلك الجَهْل كثيرة نكتفي منها بأربعة : أوّلها بقاء ذلك التراث إلى يومنا هذا مخطوطا مهملا لا يُنْتَفَعُ به ، ولو اهْتُمَّ بِهِ ونُشِرَ للناس لتمَّ استقراؤه استقراء علميّا منهجيّا والاستفادة منه في مباحثنا النباتية العربيّة الحديثة . وثانيها غيابُ المعجم التاريخيّ الموسوعيّ العربيّ الذي يُدَوِّنُ متْنَ اللغة العربية في كلّ العصور وكل الأمصَار العربيّة وفي كلّ مستويات اللغة . وثالثها عائق اللغة ، ذلك أن مُعْظَمَ نباتيّينا إنّما هم مُهَنْدِسُون درسوا علم النبات بلغاتٍ أجنبيّة في جامعات أجنبية والقطيعةُ بينهُم وبين التراث

النباتيّ العربيّ كبيرةٌ . ورابعها اهتمامنا ـ إلى حدّ الآن ـ في المجامع العلميّة والجامعات خاصّة ، بالنقْلِ والترجمة من اللغات الأخْرى ، حتّى أَنَّكَ تكاد لا تجد اليوم كِتَابًا عربيًّا واحدا في وَصْفِ النباتات العربيّة وغير العربية ، ولو على مثال كتاب « الرحلة المشرقية » لأبي العبّاس النباتي . وجُلّ من نجدُه معاجمُ ثُنَائِيَّة اللغة أو متعدِّدة اللغات مَنْزِلَةُ العربيّة فيها ثانويّة . ثم هي في الغالب معَاجِمُ اصطلاحية لغويّةٌ وليسَتْ نباتيّة علمية تُعْنَى بوصف ماهيات النبات وتحليته وتصنيفه ، يُضَافُ الى ذلك كونُها موسوعاتٍ في علم الطبيعة ليست خالصة في النبات ، إلاّ النادر منها . وأهمّ تلك الأعمال « معجم العلوم الطبيّة والطبيعيّة » للدكتور محمد شرف (طبع سنة 1926) وهو انقليزي عربيّ ، و« معجم أسماء النبات » للدكتور أحمد عيسى (طبع سنة 1930) وهو لاتينيّ فرنسيّ انقليزي عربيّ ، ومُؤَلِّفَا هذيْن الـمُعْجَمَيْن طبيبان ، وثاني المعجمَيْن في النبات المحْضِ لكنّه في المفردات النباتية ، وقد قام فيه مؤلّفه بجهد كبير في استقراء ما توصّل إليه ـ وهو قليل ـ من كتب التراث النباتي العربيّ ، ثم « معجم الألفاظ الزراعية » للامير مصطفى الشهابي (طبع سنة 1943) ، وهو فرنسيّ عربيّ في النباتات الزراعيّة والحيوان خاصّة ، و« الموسوعة في علوم الطبيعة » لادوار غالب (طبع سنة 1965 في ثلاثة أجزاء) ، وهو معجم عربيّ لاتيني فرنسي انقليزي . . . في مصطلحات مواليد الطبيعة الثلاثة : النبات والحيوان والمعادن ، فهو إذن في غير النبات المحْض . إلاّ أنه يمتاز على المعاجم السابقة بخصلتين : ترتيب موادّه على حروف الهجاء العربيّة ، وتعريف الموادّ فيه ـ بإيجاز ـ تعريفا علميّا دقيقا بماهية المولود المتحدّث عَنْه وخصائصه . وآخر هذا الصنف من المعاجم «معجم مصطلحات عِلْمِ النبات» (طُبِعَ سنة 1978) . وهو الجزْءُ الخامس من « المعجم الموحّد للمصطلحات العلميّة في مراحل التعليم العامّ » ، من وضع المنظمة العربية للتّربية والثقافة والعلوم ، وهذا المعجم انقليزيّ فرنسيّ عربيّ ، صغيرُ الحجم ، لغويّ اصطلاحي

أساسا . وميزتُه هي كونُه في النبات المحض . إلا أن فيه عيبا كبيرا ظاهرا لكلّ عين ، هو احتكام واضعيه الى الاجتهاد الشخصي في ترجمة المصطلحات الانقليزية والفرنسية وإهمالهم إهمالا يكاد يكون كليّا أعمالَ سابقيهم من محمد شرف حتى أدوار غالب . أما العلماء العرب القدامى فكأنّ بينهم وبين واضعي هذا الكتاب جدارًا سَمِيكًا ! (195) .

وخلاصة القول : إنّ المرحلة التي يمرّ بها عِلْمُ النبات عند العرب في العصر الحديث تُشْبِهُ إلى حدّ كبير المرحلة الثانية التي تحدّثنا عنها في هذا البحث ، أي مرحلة النقل والترجمة . ولسنا نَدْري الى متى ستتواصل هذه المرحلة . وهي على كلّ حال متواصلة باقية ما دام علم النبات في البلاد العربيّة يدرّس بلغات أعجميّة ، وما دامت اللغة العربيّة في المؤلفات التي توضع في

(195) الأمثلة الدّالّة في هذا المعجم على جهل واضعيه أعمالَ القدماء من العلماء العرب كثيرةٌ نكتفي بذكر نوعين منها : أوّلهما الميْلُ فيه إلى تعريب مصطلحات أعجمية قد انتهى القدماءُ إلى إيجاد مقابلاتها العربيّة أو المعرّبة ، من ذلك تعريبُهم مصطلح « Allium » بـ « أَلْيُوم » (ص 7) عوض « ثوم » ، ومصطلح « Arum » بـ « أَرُوم » (ص 15) عوض « لـوف » ، و« Cassier » بـ « كَاسْيَا » (ص 34) عوض « سَنَا » ، و« Galbanum » بـ « جَلْبَانُوم » (ص 87) عوض « خلباني » ، و« Gaiac » بـ « جَيَاك » (ص 98) عوض « عود الأنبياء » أو « عود الصّليب » ، و« Héliotrope » بـ « هِيلْيُوتْرُوب » (ص 102) عوض « رقيب الشمس » أو « أكْرار » أو « تنوّم » أو « شجرة اليَمام » أو « صَامَرْيُومَا » أو « حشيشة العقرب » ـ وقد وردت هذه المصطلحات كلّها عند ابن البيطار في كتاب « الجامع » ـ ، و« Solanum » بـ « سُولاَنُم » (ص 138) عوض « مغد » ، و« Sorbus » بـ « سُوْرِبُس » (ص 139) عوض « غبيراء » ، و« Orobos » بـ « أُرُوبُس » (ص 149) عوض « كرسنّة » أو كشْنَى » ، و« Pamplemousse » بـ « بَامْبليمُوس » (ص 161) عوض « كبّاد » أو « ليمون هندي » ، و« Pyrètre » بـ « بِيرْثْرم » (ص 166) عوض « عاقرقرحا » . . . الخ ؛ وثانيهما الميْلُ الى تعريب مصطلحات أعجميّة محرّفة من مصطلحات عربيّة بألفاظها الأعجمية الحديثة دون إعادتها الى أصولها العربيّة ، من ذلك تعريب مصطلح « Laque » بـ « لاَكْ » (ص 98) وهو محرّف من العربية « لُكّ » و« Caquiller » بـ « كاكلى » (ص 178) وهو مُحَرّف من العربيّة « قَاقُلّى » و« Sumac » بـ « سُمَاك » (ص 192) وهو محرّف من العربية « سُمَّاق » ، و« Usnea » بـ « أُسْنِيَا » (ص 202) وهـو محرّف من العـربية « أُشْنَة » . . . الخ .

النبات ذاتَ منزلةٍ ثانويّةٍ ، وما دام نباتيّونا لا يَعْرِفُون التراثَ العلميّ النباتي العربي معرفةً حقيقيّةً جيّدة ، ولا يَعْرِفون طريقَ الرحلة داخلَ البلاد العربيّة وخارجَها بحثا عن النباتات في مظانها لمعرفةِ الـمُتَعَارَفِ منها مَعْرِفَةً أدقَّ تَفُوقُ ما يصلهم عن طريق الترجمة ، واكتشافِ الجديد الذي لم يُكْتَشَفْ بعد ، حتى يُحْيُوا سُنَّةً اندَثَرتْ ، ومذْهَبًا في العلم كان العلماءُ العرَبُ القدامى السبّاقين اليه .

إبراهيم بن مراد

مصادر البحث ومراجعة

أ - العربيّة :

(1) ابن أبي أصيبعة (موفّق الدين) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق أوغست ملّلر ، ط . 1 ، القاهرة ، 1299 هـ / 1882 م (جزآن) .

(2) ابن البيطار (أبو محمّد عبد اللّه بن أحمد) : « كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهج من الخَلَل والأوهام » ، مخطوطة مكتبة الحرم المكّي ، رقم 36 (1) طبّ (80 ورقة) .

(3) ابن البيطار : « تفسير كتاب دياسقوريدوس » ، مخطوطة مكتبة الحَرَم المكّي ، رقم 36 (2) طبّ ، (38 ورقة) .

(4) ابن البيطار : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، ط . 1 ، بولاق (القاهرة) ، 1291 هـ / 1874 م (أربعة أجزاء في مجلديْن) .

(5) ابن الجزار (أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد) : « كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة » . مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر ، قطعة خامسة ضمن مجموع ، رقم 1476 (من الورقة 113 ظ الى 216 و) .

(6) ابن جُلْجُل (أبو داود سليمان بن حسّان) : « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق فؤاد سيّد ، ط . 1 ، القاهرة ، 1955 (138 ص) .

(7) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمّد بن عبد الله) : « الإحاطة في أخبار غرناطة » تحقيق عبد الله عنان ، نظرنا في الجزء الأوّل ، ط 2 ، القاهرة ، 1973 .

(8) ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمّد) : « كتاب الذّيْل والتّكْملة لكتابي الموصول والصّلة » ، نظرنا في السفر الأوّل ، تحقيق محمّد بن شريفة ، ط 1 ، بيروت ، (بدون تاريخ) .

(9) ابن مراد (ابراهيم) : « المصادرة التونسيّة في كتاب « الجامع » لابن البيطار » ، بحث صدر في مجلة « الحياة الثقافية » (تونس) ، 8 (1980) ، ص ص 117 - 158 ، 10 (1980) ص ص 107 ـ 144 .

(10) ابن النديم (محمّد بن إسحاق) : « الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدَثين وأسماء كتبهم » ، تحقيق غوستاف فلوغل ، ط . 1 ، ليبزيغ ، 1872 (351 ص نص عربيّ + 351 ص تعاليق ومقدمات وفهارس) .

(11) أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود بن وَنَنْد) : « كتاب النّبات » : الجزء الأوّل (أ ـ ز) تحقيق برنار لوين ، ط . 1 ، ليدن ، 1953 (15 + 236 + 51 ص) ، والجزء الثاني : (س - ي) ملتقطات ما نُسِبَ إليه عند المتأخرين ، اعتنى بجمعها محمّد حميد الله ، ط . 1 ، القاهرة ، 1973 (447 + 57 ص) .

(12) الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) : « كتاب النبات » ، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط . 1 ، القاهرة 1972 (23 + 110 ص) .

(13) ديوسقريديس (بدانيوس - العينْ رزني) : « المقالات الخمس وهو هَيُولى الطبّ » ، ترجمة اصطفن بن بسيل وإصلاح حنين بن إسحاق ، تحقيق قيصر دبلار وإلياس تراس ، ط . 1 ، تطوان - برشلونة ، 1957 (626 + 180 ص) .

(14) الغافقي (أبو جعفر أحمد بن محمّد) : « كتاب الأدوية المفردة » ، مخطوطة الخزانة العامّة بالرّباط ، رقم ق 155 (200 ورقة) .

(15) المقرّي (أحمد بن محمّد - التلمساني) : « نفح الطيب من غُصْن الأندلس الرطيب » ، تحقيق إحسان عبّاس ، (في سبعة أجزاء) ، نظرنا في الجزء الثاني ، ط . 1 ، بيروت ، 1968 .

(16) المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم : « معجم مصطلحات علم النبات » ، ط . 1 ، دمشق ، 1978 (397 ص) .

(17) نصّار (حسين) : « دراسات لغويّة » ، ط . 1 ، بيروت ، 1981 ، (235 ص) .

(18) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : « التاريخ » ، ط . بيروت ، 1970 (جزآن) .

ب - الاعجمية :

(19) Badawi (Abdurrahman) : «La transmission de la philosophie grecque au monde arabe», 1ère éd. Paris, 1968 (199p).

(20) Leclerc (Lucien) : «Histoire de la médecine arabe», 1ère éd. Paris, 1876 (2 vol).

(21) Sezgin (Fuat) : «Geschichte des Arabischen Schriftums», 1ère éd., Leiden - Brill, 1967 - 1984 (9 vol).